الطبعة ٢

وقت مستقطع

تأملات قرآنية في واقع مضطرب

معتز عبد الرحمن

تقديم
د.محمد علي يوسف

SHERIF

وقت مستقطع

تأملات قرآنية في واقع مضطرب

معتز عبد الرحمن

مقام
للنشر والتوزيع

وقت مستقطع

تأملات قرآنية في واقع مضطرب

إسم الكتاب: وقت مستقطع .. تأملات قرآنية في واقع مضطرب
إسم المؤلف: معتز عبد الرحمن
تصميم الغلاف: شريف الصاوى
مراجعة لغوية مركز دقة للمراجعة اللغوية والبحث العلمي
رقم الإيداع: 2014/10569
الترقيم الدولى: ISBN : 978 - 977 - 6463 - 08 - 0
الطبعة : الثانية

جميع حقوق الطبع محفوظة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر فقط وغير مسموح بإعادج نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر

مقام للنشر والتوزيع

تليفون: 01112750799
maqam.publisher@gmail.com

إهداء

إلى أبي الذي لم يقرأ هذا الكتاب
وأرجو من الله أن يصله أجره

إلى أمي التي لم أفرح بثناء أحد
على الكتاب كفرحي بثنائها عليه

إلى أسرتي الصغيرة

إلى أخي وأختي

إلى كل من علمني حرفا

إلى كل من نصحني يوما

إلى أجيال لن أراها ولكن دفعني
حبي لهم لكتابة هذه السطور

إلى أمة أحب كل أبنائها في الله،
اسما اسما، وفردا فردا

معتز عبد الرحمن

مقدمة

د.محمد علي يوسف

لمعتز عبد الرحمن قلم ذو طابع خاص، وعبق مميز يشبه كثيرا شخصيته التي عرفتها منذ سنوات، جاد في غير خشونة، حازم في غير حدة أو صلف متمسك بمبادئه حريص على إظهارها بكل سبيل حتى لو تناسى تلك المبادىء جل من حوله!

تلك السمات تظهر بوضوح على قلمه خصوصا في كتابه الرائع "وقت مستقطع" الذي شرفني بنسخة مبدئية منه؛ ليسعد قلمي بتقريظها بعد سعادة عيناي وعقلي بمطالعتها والانتفاع بما حوته من فوائد ولفتات بديعة.

و رغم أنني في كل مرة يطلب مني أحد إخواني الكتاب تقديم أحد مصنفاته، أصر على بيان حقيقة أنني أقل من أن أفعل إلا أنه أخي معتز أبى إلا أن يشرفني بهذا ولا يمكنني أن أرد

له طلبا- خصوصا -في باكورة إنتاجه والذي -بعد أن طالعته- وجدت أنني بالفعل بحاجة للكتابة عنه وبيان شيء يسير مما شعرت به بعد قراءته.

وباكورة إنتاج المهندس معتز -والتي هي هذا العمل الذي بين أيدينا -تعد في تقديري المتواضع من أهم ما كتب مؤخرا في شأن التدبر الواقعي لآيات كتاب الله الحكيم ومحاولة الوقوف على استنباطات وفوائد تتصل بما نعاصره من أحداث وآفات اكتوت بها أمتنا المسكينة.

وتحير كثيرون في البحث عن علاجات ناجعة هنا وهناك تاركين المعين الأنقى والأصفى والنور المبين الذي هو كفيل بإضاءة تلك العتمة الحالكة التي تحيط بأفهامنا أحيانا.

لقد استطاع الكاتب ها هنا أن يستمد قبسات من نور القرآن العظيم وأن يسقط عبرها وتوجيهاتها على واقعنا المعاصر ميزه التقاط ماهر لعيوب الأمة وعلاج حازم يصل إلى الصرامة أحيانا.

ومـــن يـــك حـــازمـــا فليقس أحيانا على من يرحم

كل ذلك صاغه الكاتب بدقة هندسية مبهرة أحسبه قد اكتسبها من مهنته الأصلية والتي ألقت بظلالها واضحة على استناجاته المرتبة وتوجيهاته المنضبطة والمحددة.

ولعل أبرز ما تظهر من خلاله الطبيعة الهندسية الدقيقة للكاتب هو ذلك الميزان الدقيق والقسطاس المستقيم الذي أراه قد استطاع أن يضبطه في قضايا حساسة كقضية التسامح – على سبيل المثال لا الحصر– وهي تلك القضية التي تطرف فيها كثير من الخلق بين إفراط وتفريط بينما استطاع كاتبنا أن يبين بسلاسة ووضوح ذلك الفارق بين التسامح كفضل يتكرم به القادر القوي وبين عجز الضعيف المتكاسل الذليل الذي يغلف البعض هوانه بثوب التسامح بينما هو في حقيقته هروب والكاتب مع ذلك التوازن لم ينس أن يشير إلى أن ذلك الفضل لا يفرض على الخلق وأن لصاحب الحق مقالا لا ينبغي أن ينزع منه إن أراد نيله وأن فضل التسامح والتنازل لا يعطيه من لا يملك لمن لا يستحق.. كل ذلك في إطار متناسق وأسلوب سهل يوصل الفكرة بإحكام وإقناع ودون تقعر أو تكلف وهكذا في سائر مواضع الكتاب.

ولقد لفت نظري أن الكتاب في فصوله الأربعة الأول تناول السور المدنية الأولى بالترتيب فتحدث عن البقرة ثم آل عمران ثم النساء ثم المائدة ووقف في كل فصل من تلك الفصول الأربعة مع مواضع مختلفة من سورة الفصل بينما تخلى عن هذا النسق في الفصول التي تلي ذلك حيث اعتمد البحث الموضوعي الحر الذي لم يلتزم فيه بترتيب السور والحقيقة أنه لا يلام على ذلك فهو لم يشترط على نفسه في مقدمة الكتاب ترتيبا معينا.

ولكنني لا أخفي أمنية قديمة تراودني دائما أن يتطرق من فتحت لهم أبواب فهم القرآن بشكل مقاصدي موضوعي إلى سائر السور في مصنف جامع يرجع إليه راغبو النظر المقاصدي الشامل لمعاني سور القرآن على غرار كتاب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (نحو تفسير موضوعي للقرآن) ذلك باب عظيم أتمنى أن تنهض همة المهندس معتز وغيره للقيام به في المستقبل إن شاء الله ذلك لأن الله قد حباه بتلك الموهبة التي أشرت إليها آنفا والتي مكنته من صياغة تلك الوقفات البديعة التي لم أستطع الانصراف عن الكتاب حتى أنهيتها في

ليلة واحدة وذلك لما سببته وقفات معتز من شغف وأثارته من أفكار ومعان ربما يكتب المرء عنها مستقبلا مقالات ومقالات لقد كان وقتا مستقطعا مليئا بالخواطر والشجون وذاخرا بالعصف الذهني والمشاعر المتباينة والاتفاق والاختلاف لكن ما ميز هذا كله أنه كان وقتا ثريا دسما رغم قصره النسبي الذي تمنيت أن يطول ولعل كاتبنا يسهب ويشحذ أذهاننا بالمزيد في طبعات وأجزاء أخرى قادمة أرجو أن يوفقه الله إليها.

وختاما أسأل الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته وأن يتقبل فسيلته وأن يكتب له قبولا بين عباده ونفعا لأمته وأسأله أن يكون خير باكورة لسلسلة من المصنفات النافعة والكتابات القيمة التي أحسب أن قلم المهندس معتز لا زال يحمل الكثير منها..

مُقَدِّمَة

رغم الخطة المحكمة، ورغم التدريب المستمر يحتاج الرياضيون أحيانًا للحظاتٍ وسطَ المباراة يُعيدون فيها ترتيب أوراقهم طبقًا لما استُجد في المباراة.ومن العبث أن يدفعهم الحماس والثقةُ والانشغالُ بأحداث المباراة،وصيحات الجماهير عن تلك الوقفة، وكلما تأخرتْ قلَّ تأثيرها،وقل الوقت المتاح للتعويض.فما بالنا إذا كانوا قد بدأوا أصلاً دون خطة ودون تدريب ودون دراسة جيدة للمباراة؟!

بالطبع تكون مثل هذه الوقفات أولى وأشد ضرورة؛ ولأن الواقع مشتبك،ومتسارع يصعب أن يكون التوقف لوقت طويل؛ لأن الواقع لن ينتظرك. فعليك -على الأقل- مراجعة الأصول الهامة في أقرب فرصة. ثم ترتب بعدها أولوياتك.وما لا يدرك كله لا يترك جلُّه، وخير الأمور الوسط.

في السنوات الماضية تزايدتْ سرعةُ قطار الأحداث بشكل

رهيب، وقد اعتدنا دوما أن نتعامل معها- حدثا حدثا،ومشكلةً مشكلةً- بهدوء. وتأتي النقاشاتُ في جوٍّ من الرفاهية الفكرية والوقت المتسع.

أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا!

فبمجرد أن تغلق نقطة يفتح عليك ألف نقطة. والدوران حول النفس والركْض في المكان لا ينتهيان؛ لذا فقد حرصت في السُّطور القادمة على تجميع شيءٍ من العناصر والمشكلات وكتابتِه ومناقشتِه.وهي التي تسببت- في رأيي- في الانحدار الشديد الذي وقعنا فيه.

كنتُ دوما حريصا على نقاش هذه النقاط في وقتِها، وكنت عادةً أقابل بالرد الشهير: (مش وقته)،وأن فتح مثل هذه النقاط وذكرَ هذه التنبيهات لا يهم ولا يفيد الآن، ولعل هذا سيكون تعليق البعض على الكتاب أيضًا.

ولكنَّ ما أؤمن به أننا إذا ظللنا على هذه الحال من التدحرج غيرِ المنضبط في كل الاتجاهات يستحيل أن نصل إلى شيء، وأن وقفةً بسيطةً مع النفس ليست هي التي ستعطل المسيرة. بل لعلها هي التي تسهم ولو إسهاما بسيطا في ضبط اتجاهها، وتعظيم

مكاسبها وتقليل خسائرها.

وقفةٌ لا أدعي أنها كلُّ شيء، ولكن- فقط- لعلها تسهم بشيء ولو بحفظ جزءٍ مما تبقى من مفاهيم، وتجديدِ شيء مما اندثر من قيَم ـإن لم ننتفع بها نحن، فعلى الأقل نورثها أبناءنا وأحفادنا بيضاء نقية؛ لعلها تكون مجردَ شمعة في ليل الأمة الذي يشتد ظلامه كل يوم ومع كل حدث.

هذا عن أهمية الوقت المستقطع في تلك المرحلة المضطربة.

أما عن ارتباط تأملات الوقفة بالقرآن الكريم؛ فإنهم إذا كانوا يقولون أن القراءة تزيد المرء أعمارا فوق عمره، وتضيف إليه خبرات لم يكن ليحصلها مهما طالت حياته وكثرت تنقلاته، وتوفر عليه الكثير من الوقت والمجهودات وتكفيه الكثير من المشكلات؛ إذ إن الخبرة في الحياة تأتي عادة من التجربة والخطأ، والمحاولة والتكرار، وكل ذلك يستنفذ الكثير والكثير من عمر الإنسان القصير ومجهوده المحدود، وأن القارئ- المستفيد مما يقرأ- يوفر الكثير من هذه التجارب بعدما أرشدته تجاربُ الآخرين المقروءة أنها بلا طائل، وتسهل له الطريق باختيار السبل التي تكرر نفعها،وتبين خيرها مع الآخرين.

فما بالنا بمن يهتم بالاستفادة من كلام رب البشر الذي يعلم من خلق ويعلم ما يصلحهم ويدلهم على ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة وما تصلح به حياتهم وتستقيم؟!

إننا نقول – ونشاهد بأعيننا – أن التاريخ لا يكرر نفسه إلا مع الذين لا يقرأونه، أو يقرأونه ويظنون أنه لا يمكن أن يتكرر، فيقعون في نفس المقدمات وينتظرون نتائج مختلفة، فإنه من باب أولى أن السنن الكونية ستتكرر مع من يقعون في مقدماتها ويباشرون مسبباتها وهم ينتظرون نتيجة مختلفة، سواء كانوا يقعون فيها وهم على علم بها وفي هذا ضعف يقين كبير نعوذ بالله منه أو يقعون فيها وهم لا يعلمون.

وفي هذا تقصير منا في معرفة كتاب ربنا، وفهمه وتعلمه والعمل به ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ سورة الزمر.

إن علاقتنا –بوصفنا مسلمين– مع القرآن الكريم في هذه الأيام لها صور ودرجات متعددة: فما بين حافظ متقن، وتال مداوم متدبر، وبين حافظ متقن لأحكام التلاوة دون تدبر وفهم، أو حريص على التلاوة ووِرده خط أحمر أيضًا دون تأمل، أو كثير

الاستماع للتلاوات المسجلة في السيارة والعمل والبيت، أو بعيد كل البعد عن تلاوة كتاب الله، مصحفه يعلوه التراب في البيت وتأكله الشمس في السيارة.

والصورة الأخيرة هي الأكثر انتشارا للأسف! إلا إنه ما إن يأت رمضان إلا وتتغير الأحوال ظاهرا، فتفتح الأدراج ويُزال التراب ويهرع كل فرد من أفراد الأسرة إلى مصحفه، وربما تنافسوا في توزيع المصاحف. كلٌّ يبتغي الأوضح خطًّا والأبهى ورقا والأيسر حملا، ليبدأ شهر كامل يمتلئ البيت فيه بالدندنة الجميلة وكذلك وسائل المواصلات والمساجد بعد الصلوات، وتزدحم المساجد في صلاة التراويح ليستمع المسلمون لتلاوة آيات الله البينات بعدما قرأوها، فتعانق الآذان بعدما عانقت الألسنة،ثم تعانقها مرة أخرى في صلاة التهجد في العشر الأواخر، حتى يخرج بعض المسلمين من رمضان وقد قرأ القرآن الكريم كاملا على الأقل مرة، وسمعه كاملا على الأقل مرتين، ومع هلال العيد، يعود كل شيء كما كان من جديد!

وهذا ما دفعني في بداية شهر رمضان ١٤٣٣هـ أن أشرع في كتابة هذه السطور لأول مرة على هيئة حلقات يومية قصيرة ومركزة. وحرصت على الاستفادة من هذه الصلة التي تنشأ بين الكثير من

المسلمين وبين القرآن الكريم في هذا الشهر الكريم؛ للفت نظرهم إلى شيء من هذه التأملات التي نحتاجها في هذا الوقت ووسط هذه الأحداث. وقد لاقت حينها قبولاً طيبًا والحمد لله!

ولأن الواقع لم يتوقف عن التغير، والغربلة لم تتوقف عن كشف مشكلاتنا ومواطن الخلل _فقد أعدت كتابة هذه التأملات من جديد بأسلوب جديد؛لأضعها بين يدي القارئ الكريم فأذكره ويذكرني، يتفق معي أو يصوّب لي. المهم ألا نظل أسرى لهذا التدحرج العشوائي؛ ننتظر ونتطلع مستسلمين في أي نهر أو بحر أو كهف أو جدار سينتهي بنا الحال.

جدير بالذكر أن اعتمادي الرئيسي في تفسير الآيات وفهمها كانت على تفسيري ابن كثير رحمه الله، وتفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي- رحمه الله! وفي أحيان قليلة كنت أعود لتفسير الطبري.

فما كان من صواب فمن الله وبفضله وكرمه ثم بفضل هؤلاء الأفاضل رحمهم الله، وما كان من خطأ فمني ومن تقصيري، وأسأل الله من عفوه ومغفرته.

الفصل الأوّل

سمعنا وأطعنا

لا ينبغي أن تمر اللحظات الأولى من الوقت المستقطع- القصير بطبيعة الحال -دون مراجعة وتذكير بأهم قانون، وأقوى قاعدة والتي ينبني عليها كل شيء!

ولا عجب أن هذا المفهوم قد تركز بقوة أيضًا في السورة الثانية من القرآن الكريم، فإذا كانت سورة الفاتحة بمنزلة التمهيد والإجمال لما سيتم تفصيله في كتاب الله من سورة البقرة إلى سورة الناس؛ فقد كان لهذا المفهوم النصيب الأوفر في سورة البقرة.

لذا ستتركز دراستنا له من خلال السورة. وإن كان– بالطبع– قد جاء وتكرر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ناهيك عن السنة النبوية.

الوقفة الأولى: بين فواتح السورة وخواتيمها

إن المسلم الحريص على النجاة الذي يخشى عذاب ربه ويرجو رحمته ليبحثُ في كتاب الله بشغف عن أبواب النجاة؛ ليدخلها وينهل من خيراتها، وعن صفات أبواب الهلاك؛ليحذر

منها ويبتعد عنها!

وقد توسل المسلم في تلاوته لسورة الفاتحة أن يجعله الله تعالى من الذين أنعم الله عليهم وأن يهديه صراطهم المستقيم ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)**﴾ وبعد الدعاء وطلب الهداية والتوفيق يأتي العمل والأخذ بالأسباب. والعمل يتطلب العلم، فيختم سورة الفاتحة خاشعا متشوقا لمعرفة صفات هؤلاء الناجين ليتصف بها ويحرص عليها _ فتأتي فواتح سورة البقرة لترشده إلى غايته....

﴿**الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)**﴾

يتصدر الإيمان قائمةَ واجبات باغي النجاة والفوز، كيف لا؟! وهو الواجب الذي إن فقد لا ينفع المرءَ أيُّ عمل يعمله!

وإن تحقق على الوجه الصحيح يرجى معه مغفرة الذنوب ونيل الشفاعة وينجو به العبد من الخلود في النار ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ**

فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)﴾ سورة النساء؛ لذا فإن غياب مفهومه أو تسطيحه يكون له أثر سيئ جدًّا في حياة المسلمين، ثم آخرتهم. وعدم إدراك مترتباته يؤدي إلى ما نراه من حالات انفصام عجيبة في سلوكيات الكثيرين وتحول الدين إلى مجرد لافتة: انتخابية تارة، وتجارية تارة، واجتماعية تارة أخرى، فيخالف القول العمل ويخالف المظهر الجوهر.

والإيمان يكون بالغيب وليس بالمشاهد بالحس. يقول العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسيره":حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين

المصدقين المهتدين بهدى الله"

وقد افتتحت السورة صفات المتقين بالإيمان بالغيب، واختتمت بتفصيل معناه في قوله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)**﴾، فالإيمان بالغيب له مترتبات لا تنفك عنه، وهذه المترتبات تتلخص في قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ وهو المعنى الذي تدور حوله الكثير من آيات السورة الكريمة كما سيتبين بإذن الله في السطور القليلة القادمة.

والاهتمام بفهم الربط بين الآيات وبعضها في السياق الواحد وبين فواتح وخواتيم السور من الأمور الهامة جدًّا، والتي توسع فَهْم كتاب الله وتعظمه، وتعمق الإيمان بإعجازه وذلك يسمى: علم)المناسبة(، والذي أنصح نفسي وإياكم بالاهتمام به.

ومن المفيد جدًّا قبل البدء معرفة سبب نزول خواتيم سورة البقرة، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ ":لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– ﴿ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ**

لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا أَيْ رَسُولَ اللَّهِ كُلِّفْنَا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– :أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا:

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا.. ﴾ الحديث..."

فالواجب على المسلم الاستجابة للأمر؛ ثقل عليه أو لم يثقل، وافق عقله أم لم يوافقه. وكل ذلك من الإيمان بالغيب.

وإذا نظرنا إلى قصة البقرة التي سميت السورة باسمها وجدناها تخدم هذا المعنى وتؤصله بشكل مباشر وصريح.

الوقفة الثانية: اذبحوا بقرة

يصبح بنو إسرائيل يوما فيجدون جثة أحدهم مقتولا! يحدث الاضطراب وتتناثر الاتهامات، ويختلف الناس ويشتد الكرب ويتصاعد الموقف. وأنى لمثلهم أن يضطربوا ورسول الله موسى عليه السلام بين ظهرانيهم؟!

هنيئا لهم! فالأرض لا تزال متصلة بالسماء. و إن سؤالا بسيطا لنبي الله موسى يعلمون به من القاتل؟ وتنتهي القضية. يذهبون إليه يسألونه من القاتل فيجيبهم عليه السلام ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾

فوجئ بنو إسرائيل بالرد الذي لا يجدون له ربطا منطقيا بينه وبين السؤال، ناسين أو متناسيين أن المتحدث نبي يوحى إليه من قبل الله، وأن أوامر الله تعالى ليست كأوامر البشر؛ إذ إن غايتها الأولى اختبار الإيمان والطاعة. فجاء ردهم الأول ﴿ **قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾ فذكرهم رسول الله بمكانه ومكانته، التي لا يليق بها هذا الرد، وأنه عليه السلام ما كان ليقول غير ما يوحى إليه ﴿ **قَالَ أَعُوذُ**

بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

انشغل بنو إسرائيل بتفاصيل الأمر عن طاعة الآمر، فأخذوا يسألون عن أشياء لم يطالبوا بها. فلو أنهم ذبحوا أي بقرة امتثالا لانتهى الأمر، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم وذلك لضعف تصديقهم وإيمانهم بالغيب الذي ترتب عليه ضعف الانصياع والطاعة، حتى انتهى بهم الأمر أخيرًا إلى ذبحها بعدما حُددت بواحدة نادرة الوجود. وعقَّب الله تعالى على ذبحهم إياها ﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ (٧١)** ﴾

ذبحت البقرة ولم يعلم -بعدُ- الحكمة من ذبحها، وما ارتباطها بقضية الرجل المقتول؟!

وهنا جاء الأمر بأن يضربوا الميت ببعض منها؛ فأحياه الله وأخبر عن قاتله وأجيب السؤال بمعجزة كبرى لم تأت في الحسبان حينما أمروا بذبح البقرة في أول وهلة ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)** ﴾، لم يخبرهم الله بالحكمة من الأمر في البداية لأن تنفيذ المؤمن للأمر يرتبط فقط بإيمانه بالله ورسوله لا بمعرفة الحكمة.

لم يخبرهم أن بعد الذبح سيضرب الميت ببعضها فيعود للحياة،

وهل لو أخبرهم لقبلوا ذلك بعقلهم الذي تمرد على الأمر من البداية؟!

إننا نعاني في هذا الزمان من سوء فهم كبير حلُّه بسيط في كتاب الله في مواطن كثيرة جدا؛ منها ما هو في سورة البقرة، وإن لم تكن سوى قصة البقرة التي سميت بها أطول سورة في القرآن الكريم لكانت كافية.

يتساءل أحدهم في عجب: لماذا الزنا حرام؟ فيقول الداعية: لأنه يسبب اختلاط الأنساب. فيرد: إذن انتفت علة التحريم بوجود وسائل منع الحمل الحديثة، أو في حال العقم وأصبح حلالا!!

ومثله من يتساءل: لماذا نصوم؟ قيل :كي نشعر بالفقير! قال: إذن، لم يكن هناك حاجة للصوم في عهد عمر بن عبد العزيز ولم يكن فرضًا!!

أو إذن، ليس على الفقير الجائع نفسه صيام!!

هذه الأمثلة ومثلها كثير يحدث في النقاشات اليومية؛ والسبب ضياع هذا المفهوم عند الكثيرين، وأن الدنيا دار امتحان لمن ادعى الإيمان بالله بالغيب والإيمان بصحة كتابه وبرسالة نبيه – صلى الله عليه وسلم–.

هل كان يعلم الصحابة أضرار لحم الخنزير الصحية لما حرم عليهم؟!

وهل لو تم اكتشاف علاجٍ لأمراضه سيحلل؟!

وإذا ظهرت أضرار جديدة له يحرم مرة أخرى؟!

أرأيتم كم يفتح علينا غياب هذا المفهوم أبوابا للعبث؟!

إن الحكمة الأولى من أي تشريع بالأمر أو النهي هو اختبار صدق إيمان المسلم وانصياعه وطاعته لربه ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)** ﴾ سورة النساء. فإذا ما علم حكما أخرى من التشريع سواء من القرآن والسنة أو الاكتشافات الحديثة أو الواقع وتجاربه زاده ذلك يقينا لا أكثر، وربما استخدم ذلك مع الأمور الإعجازية في القرآن والسنة في لفت أنظار غير المسلمين للإسلام ودعوتهم إليه، لا أن يعلق أحكام الفقه عليه دون دليل، فهناك أحكام فقهية متعلقة بعلة؛ إذا انتفت هذه العلة انتفى الحكم ، ولكن لابد أن يستدل على هذا التعلق والارتباط من القرآن والسنة، لا من الآراء والأهواء.

الوقفة الثالثة: آدم وإبليس

يصدق إبليس بوجود الله وخلقه له ﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)** ﴾ سورة الأعراف

يصدق إبليس بقدرة الله عليه ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ**

يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ سورة ص. وفي ذلك أيضًا تصديقه باليوم الآخر.

لم يدعِ وجود شريك لله، بل أقسم بالله ولم يقسم بغيره. ويصدق بعزته جل وعلا ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)** ﴾ **سورة ص**

يصدق بالملائكة بطبيعة الحال؛ إذ عاش بينهم، ويصدق بنبوة الأنبياء وكتبهم وكيف لا؟! وقد توعد بإضلال الناس عن طريقهم وأقر بعلمه أن نتيجة ذلك ستكون النار له ولمن اتبعه.

ومع ذلك، فإبليس كافر بل رأس الكفر، وجاء كفره وهلاكه وطرده من رحمة الله نتاجًا لحيوده عن قاعدة)(سمعنا وأطعنا) إذ أعطى نفسه صلاحية رفض أمر الله تبارك وتعالى والاستكبار عليه – على الأمر – عندما لا يوافق هواه ومراده.

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)** ﴾ **سورة البقرة.** فإن العبودية أن تكون عند مراد الله منك، لا أنت تطلب من الشرع أن يكون عند مرادك منه!) ﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)** ﴾ **سورة الأعراف.**

فلم ينفع إبليس كل هذا التصديق عندما ترك لوازمه، ولم

تنفعه عباداته السابقة، وطرد من رحمة الله وهلك والعياذ بالله.

فما قيمة أن تصدق بوجود الإله وقدرته وخلقه وعزته وأن تصدق بوجود اليوم الآخر وملك الخالق له وقدرته على إثابة وعقاب خلقه فيه ثم لا تفرده وحده بحق الأمر والنهي والتشريع، وافق التشريع هواك أو لم يوافقه؟!

وأين الاختبار والامتحان إذا كانت كل التكاليف توافق هواك وتحقق مرادك الشخصي الدنيوي؟!

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)** ﴾ سورة الأحزاب.

والفرق بين ذنب إبليس وذنب آدم عليه السلام: أن ذنب إبليس نبع من طعنه وتكبره على السمع والطاعة مطلقا لله، ومنح نفسه حق تقييم الأمر قبل تنفيذه كما تبين. أما ذنب آدم عليه السلام فلم ينبع عن تمرد على الأصل، أو إنكار لمبدأ السمع والطاعة مطلقا لله، ولكن عن ضعف وخطأ ألحقه على الفور بالتوبة والإنابة والندم. والندم ناتج عن إيمان آدم عليه السلام أن الإيمان بالله يستلزم طاعته مطلقا، أما إبليس فلم يندم؛ لأنه استكبر على

هذه الطاعة المطلقة، ومن اللفتات أيضًا أن ضرر هذه الشجرة على الصحة أو عدمه لم يكن له دور في تحريمها مثلا، بل الأثر الذي نتج عن المعصية بكشف السوءة لا يترتب- منطقيًّا بأي حال -على الأكل!

الوقفة الرابعة: بنو إسرائيل.. نموذج متكرر

لم يكن تردد بني إسرائيل في قصة البقرة هو كل شيء، بل إن مسألة الإيمان بالغيب وما يترتب عليه من تحقيق)سمعنا وأطعنا (كانت دومًا باب هلكة وضياع لبني إسرائيل، سواء في عهد نبي الله موسى أو مع الأنبياء من بعده، وإن أردنا أن نتأمل مواقف مختلفة لهم في سورة البقرة فقط لوجدنا مثلاً.

١- رفضهم الانصياع للأمر في دخول القرية سجدا بعدما فتحها الله عليهم، وتكبرهم على ذلك، وتبديلهم لأوامر الله وتغييرها ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (٥٩)**﴾

٢- رفضهم اتباع النبي محمد - صلى الله عليه وسلم- بعدما أجابهم على أسئلتهم؛ لأنهم علموا أن وليه من الملائكة جبريل، وهم يعدونه عدوا لهم مدعين أنه لو كان من يأتيه ملك آخر كميكائيل لاتبعوه!!

فأي إيمان بالغيب هذا الذي يقوم صاحبه بالاختيار بين الملائكة؟!

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾

٣- أخذهم لبعض ما جاءت به التوراة وتركهم لبعض.

نهى الله اليهود عن أن يقاتل بعضهم بعضا وأن يخرجوا بعضهم بعضًا من ديارهم﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)**﴾ وكان من شرعهم أيضًا أنهم إذا وقع منهم أسرى في معركة أن يفتدوهم على الفور ويفكوا أسرهم، فلما كانت الحرب مستعرة قبل الإسلام بين الأوس والخزرج في المدينة

دخل بعض اليهود في حلف الأوس، ودخل البعض الآخر في حلف الخزرج، فإذا وقعت الحرب بينهما قتل اليهودي من هنا اليهودي من هناك وأخرجه من داره وسلبه ممتلكاته وهذا مخالف للتوراة، فلما تنتهي الحرب ويقع من اليهود أسرى عند الفريقين بادر اليهود جميعا لجمع الفدية كي يفكوا أسر الجميع إعمالا للتوراة التي تأمرهم بذلك! قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)** ﴾

وقد سمى الله هذا الانتقاء إيمانًا ببعض الكتاب وكفرا ببعض!!

وهو درس لا لبني إسرائيل فقط ولكن لكل المؤمنين، وتحذير من تقليد سلوكهم الذي يؤدي لنفس عاقبتهم من اللعن والطرد والعذاب، بل قد جاء هذا السلوك كأحد الصفات الرئيسية للمنافقين في سورة النور ﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨)**

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

فالاحتكام للشرع حينا والإعراض عنه حينا بحسب الهوى والمصلحة كان من أسباب الغضب على بني إسرائيل وهو من أسباب سقوط المنافقين في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله، فاحرص على أن تكون ممن وصفهم الله في الآية التالية في سورة النور أيضًا ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ(٥٢) ﴾

٤- موقفهم مع طالوت، وهو الملك الذي بعثه الله لهم بعدما طلبوا بأنفسهم من أحد أنبياءهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون تحت رايته ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً

مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾

كتب القتال الذي طلبوه فتولوا إلا قليلاً منهم!! بعث لهم الملك الذي طلبوه بوحي من الله لنبيهم فجادلوه في وأبى الكثيرون اتباعه؛ لأنه لا يوافق هواهم!!

﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)** ﴾

ولما خرج من خرج منهم مع طالوت في الجيش وامتحنهم الله بالنهر أيضًا تولى الكثيرون وعصوا الأمر !!﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾، ومجددًا لم يكن النهر سامًّا!! ولم يتضرر من شرب منه في جسده ودنياه. ولكن الهدف هو امتحان تغلغل الإيمان في القلب، والذي دلالته الالتزام بـ (سمعنا وأطعنا).

الوقفة الخامسة: تحويل القبلة

لقد كان تحويل القبلة أيضًا درسًا واضحًا يرسخ ذاك المبدأ الجليل والقاعدة الأصيلة في أن الإيمان ينبغي أن يصدقه العمل وأن غاية التكليف الاختبار والتمحيص.

فبعد أن صلى النبي - صلى الله عليه وسلم- والمسلمون معه إلى بيت المقدس نحو ستة عشر أو سبعة عشر شهرا نزل الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام. وكالمعتاد :ما بين مؤمن راسخ متيقن يطيع الأمر ولا ينتظر حتى تنتهي صلاته فيستدير إلى البيت الحرام وهو يصلي، وبين مرتاب متردد وسفيه يثير الشبهات والقلاقل!!

وكتاب الله فاصل يذكر الحكمة بوضوح ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ** ﴾، هذه هي الحكمة العظمى: من سيقول سمعنا وأطعنا؟ ومن ينقلب على عقبيه؟

ليست الحكمة متعلقة بذات بيت المقدس أو بذات البيت الحرام قدْرَ ما هي متعلقة بالنجاح في الامتحان وطاعة الرحمن ﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى**

الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

يتساءل الصحابة عن صلاة من ماتوا قبل تحويل القبلة؟! ما مصير من لم يسجد سجدة واحدة تجاه البيت الحرام؟ فينزل القرآن الكريم ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ إنهم لم يصلوا تجاه بيت المقدس إلا إيمانا وطاعة، وأنتم تصلون اليوم تجاه البيت الحرام إيمانا وطاعة، فما الفرق؟! قد حققوا الغاية ومروا في الاختبار ولن يضيع الله تبارك وتعالى أبدا امتثال عبده وطاعته.

الوقفة السادسة: معانٍ صريحة..

ورغم كل هذه الدلالات التي لم نذكر إلا شيئًا منها إلا أن هذا المعنى لم يترك للاستقراء فقط بل جاء أمرًا صريحًا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره ما نصه: يقول الله تَعَالَى

آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ بِرَسُولِهِ أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ، وَتَرْكِ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ، مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ.

في الآية أمر باتباع كل ما جاء به الإسلام من أوامر وأحكام، وعدم التفرقة بينها والعمل ببعضها وترك بعضها كما صنعت بنو إسرائيل، وعدم ادخال الأهواء والميول الشخصية في الأمر. بل صرحت الآيات أن الأمر قد يأتيك على خلاف ما تريد تمامًا وعلى عكس ما تحب فقال تعالى﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢١٦)** ﴾

يستدل الكثيرون بهذه الآية فقط في مواطن التصبر على المشكلات والمصائب، إذا مات له عزيز أو ترك عملا أو فارق مخطوبة وما إلى ذلك،وهذا صواب.

ولكن المعنى جاء –بوضوح –مقترنا مع حكم شرعي بفرض القتال، ويخبر الله تعالى عباده أنه يعلم ما في نفوسهم من كره فطري لذلك، ولكن الحكم –وإن بدا مخالفا لهواك– فإنه فيه الخير في الدنيا والآخرة.

ولو كانت الأوامر دوما محببة للنفس موافقة لشهواتها لآمن كل الناس ولما تمايز الصادق من الكاذب المنتفع. قال تعالى ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ وقال تعالى في سورة الحج ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)** ﴾ وقال تعالى في سورة الأنفال﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)** ﴾ الله أعلم بخلقه وما يدور في قلوبهم ويعلم أنهم يحبون الأيسر والأسهل، ولكن حفت الجنة بالمكاره؛ ليدخلها الصادقون.

الوقفة السابعة: مع بعض أحكام سورة البقرة

ومن اللافت لنظر المتأمل المتدبر أن السورة التي تهتم كثيرًا بإرساء هذا الأصل الهام؛ فقد احتوت على الكثير من الأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، وكأنها تمهد النفوس لقبولها والعمل

بها وتحذر من مخالفتها وتذكر بمصير من خالف من قبل!!

وهذا من دور القصص في القرآن الكريم أن يعلمك من سير السابقين ما يحميك من السقوط في أخطائهم وتكرار تجاربهم المريرة في معصية الله ورسله.

في السورة أحكام للصلاة والصيام والحج والقصاص وكفارة اليمين والزواج والطلاق وعدة المطلقة والأرملة والقتال والدين والربا..

وسنقف وقفات تأملية سريعة مع بعض هذه العبادات المذكورة في هذه السورة العظيمة:

١- وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ

إن المتأمل في مناسك الحج والعمرة يرى ما يستحق الوقوف والنظر، ويرى تطبيقا مباشرا لما ذكرناه عاليا، إنك تستلم حجرا وتقبله (الحجر الأسود). بل إن لم تستطع تقبيله و لمسته بيدك أو عصا أو نحوه تقبل يدك أوالعصا، وإن لم تصل إليه تشير إليه من بعيد في كل شوط، ثم تستلم حجرًا ولا تقبله)الركن اليماني(وإن لم تصل إليه لا تشير إليه من بعيد. ولا يجوز أن تفعل ذلك مع أي جدار آخر في الكعبة.

ثم تسعى من حجر إلى حجر دون لمس أو تقبيل، وتمسك

بحجر وترجم به حجرا آخر في رمي الجمرات، فسبحان الله! ما فرق هذا عن هذا؟! وما اختلاف هذا عن هذا؟!

الإجابة: قالها عمر بن الخطاب قديما حيث قال للحجر الأسود: "والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم قبلك ما قبلتك" **رواه مسلم**.

تقضي نهار التروية في منى وتبيت فيها، وتقضي نهار اليوم التاسع في عرفة ولا تبيت فيه، ثم تبيت في مزدلفة وترحل مع طلوع الشمس، ثم تطوف وتسعى وتحلق وتنحر)للمتمتع والقارن (ثم تعود لمنى لتقضي أيام وليالي التشريق هناك.

ما الفرق بين هذه الأحجار؟ وما الفرق بين هذه الأماكن؛ كي يختلف التصرف فيها هكذا؟!

الفرق هو:(سمعنا وأطعنا)؛ لذا فإن الذين يتحدثون عما يسمونه "وثنية الحج" بطلان كلامهم يغني عن إبطاله. فالحج معناه ودلالته عكسية تماما؛ فاختلاف التعامل مع نفس المخلوق تقبيلا تارة ولمسا تارة ورميا تارة أخرى يدل على فقدان هذا المخلوق لأي دور وهيمنة، وأن الأمر كله طاعة خالصة لله تعالى

وهذا هو التوحيد الخالص والطاعة المطلقة لرب العالمين.

إن درس الحج الأعظم هو تعظيم شعائر الله ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)** ﴾ سورة الحج. وإنما مقصود السفر والإنفاق والإحرام والتجرد من متاع الدنيا والصبر على مشقة المناسك وتنوعها هو اختبار السمع والطاعة لله تعالى وتحقيق تقواه ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)** ﴾ سورة الحج. ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٧)** ﴾ سورة الحج. والمتأمل في أحكام الحج يرى فيها رخصا كثيرة وسعة – بالدليل الشرعي لا الهوى – إذ إن مشقتك ليست الغاية في ذاتها ولكن الغاية أن تتزود بالتقوى وتعظيم شعائر الله.

٢- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ

إن الصيام أيضًا من العبادات ذات الطبيعة الخاصة جدا؛ فهو عبادة يصعب جدا حصول الرياء فيها؛ لأن المرء قد يقضي يومه

كله بين أقرانه صائما دون أن يشعروا بصيامه، و إن عرض عليه طعام وشراب قد يستطيع أن يتملص بسهولة جدا دون أن يخبرهم بالسبب، كما أنه في المقابل كم يسهل على المنافق ادعاء الصوم وهو ليس صائما.

الصيام مدرسة التقوى، يتعلم فيه المرء طاعة الله امتثالاً ومراقبة له وحده، لذلك أيضًا التيسير فيه كبير.

فإن كنت مريضًا أو على سفر فإنك تفطر وتقضي، وإذا كان المرض مزمنا أو السن متقدما تفطر وتطعم.

ليست القضية في صيام البطن وجوعها ولكنه الامتثال لأوامرالله، فمن صام امتثل، ومن أفطر لوجود العذر ثم قضى أو أطعم أيضًا امتثل، ومن يخدع الناس لن يخدع ربه، وكل إلى الله راجع إليه وبين يديه مسئول عما فعل وعما لا يعلمه أحد إلا الله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ سورة البقرة.

٣- وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا

﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لَا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥)** ﴾ سورة البقرة.

لم يأت الرد على شبهتهم ﴿**ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا**﴾ بشرح اقتصادي تفصيلي للفرق بين البيع والربا؛ ولكن جاء الفرق الأهم والأعلى ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا** ﴾

وليجتهد بعد ذلك المجتهدون والمتخصصون في تبيين الفرق بينهما وأثر كل منهما على الاقتصاد، ولتمض الأيام وتثبت كم هي أضرار الربا على الاقتصاد؟!

ولكن الأصل الأصيل أن الفرق بين البيع والربا هو أن الله

تعالى أحل البيع وأن الله تعالى حرم الربا. أمر ونهي ليتبين الطائع من العاصي؛ لذا لم يأت الوعيد بذكر الخسائر الاقتصادية وما شابه، ولكن جاء الوعيد بذكر النار لأن الأمر تعبدي بحت.

٤- وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما

﴿ **يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)** ﴾ سورة البقرة.

كانت هذه الآية الكريمة إحدى مراحل تحريم الخمر قبل أن ينزل تحريمها القاطع في سورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)** ﴾ ولكنها تحوي درسًا هامًا جدًّا لا ينبغي إمراره دون تأمل.

إن الكثير من الدعاة اليوم- حرصا منهم على تقريب الناس للطاعة وإبعادهم عن المعاصي- يعمد إلى التركيز على أضرار المعصية الدنيوية، وآثارها السيئة؛ لينفر المسلمين منها، وهذا جيد.

ولكن ينبغي أن نتعلم من الآية أن نفهم أنفسنا ثم الناس: أنه لا مانع أبدا أن يكون للمعصية منافع ظاهرة بحسابات البشر. لا

يغرنك أن لها شيئا من الفوائد المادية؛ لأن الإثم الناتج عنها أكبر، ولأن غمسة في نار جهنم تمحو كل هذه المنافع والآثار.

إن الإغراق في تأويل الحكمة وافتعالها من التشريع والأمر والنهي كما ذكرنا يوقع في أخطاء دعوية أكبر؛ لأن الربط المحض بين المعصية والضرر يؤدي عند بعض الناس إلى الوقوع في المعصية والافتتان بها إذا انتفى عنده الضرر الذي اجتهد الداعية في ذكره.

وكما في شأن تحويل القبلة مات أناس من الصحابة قبل تحريم الخمر فهل ضرهم ذلك شيئًا؟! لا؛ لأنهم لما شربوها لم تكن محرمة فلا إثم عليهم ولا ذنب. ونزل فيهم قوله تعالى ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)** ﴾ سورة المائدة.

الوقفة الثامنة: عقيدة لا شعار..

ولأنني أريد من هذه الوقفات المساعدة في فهم مشاكل واقعنا وحلولها، وليس الطرح الروحاني الفكري البعيد عن الأرض والواقع لا أستطيع تجاوز هذه النقطة دون تعليق مقتضب على الجدل الذي يدور في مسألة (الإسلام هو الحل)

ومدى فهم مدلولاتها.

إن فقدان المفهوم الإسلامي الهام الذي يدور حوله هذا الفصل كان له دور كبير في ما آلت إليه الأمور، وفقدانه لم يكن فقط عند البسطاء ولكن عند كثير ممن ينتسبون للدعوة، وممن يشرحون هذا الكلام ليل نهار.

من خلال ما ذكر في هذا الفصل وغيره مما لم أذكره دعنا نراجع سويًّا:

لماذا جاء الإسلام؟ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الإيمان

ما غاية وجودنا على الأرض؟ ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)** ﴾ سورة الذاريات. والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وتنفيذ كل أوامر الله تبارك وتعالى وأحكامه واجتناب كل نواهيه.

ما ثواب من يدخل في الإسلام مؤمنًا موقنًا مطيعًا؟ جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وما عقاب من يكفر بالإسلام؟ النار خالدًا فيها وبئس المصير.

وما عقاب من يسلم ويعصي؟ هو في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

هل يجوز أن ننفذ بعض الأوامر ونترك بعض الأوامر؟

الإجابة :لا يجوز للآية المذكورة من قبل ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)** ﴾ سورة الأحزاب. ولقول الله تعالى ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)** ﴾ سورة البقرة، وقد سبق الكلام عن هذه الآية، وكذلك هنا لا مجال للحديث عن ترك مجرد البعض ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)** ﴾ سورة المائدة. وغير ذلك من الأدلة التي لا يمكنني حصرها.

إذن فتطبيق الإسلام -كله-والتزامه عبادة: ليس المسلم مخيرا

فيها.وهي نتيجة منطقية لإيمانه، وبدونها يلاقي المرء الأهوال يوم القيامة، فكما أنه لا مجال للحديث في تطبيق الصلاة والصيام والزكاة والحج وبر الوالدين وترك الزنا والخمر والربا والسرقة وغير ذلك سواء تبيّن لذلك أثر مباشرا على الرفاهية والرخاء والنمو أو لا. فكل أحكام الشريعة كذلك. وهو الأمر الذي غاب في دعوة القوم إلى تطبيق الإسلام والالتزام به.

إن العقلية الانتخابية البحتة دفعتهم لأن يحولوه إلى مشروع تنموي دنيوي بحت هدفه الرخاء والرفاهية المباشرة، فهذا ما يناسب اللافتات وينتزع الأصوات، وغابت الخصيصة الأولى والأهم في الأمر ألا وهي:أن الإسلام هو الحل الوحيد للنجاة يوم القيامة . ولا سبيل إلى نيل رضا الله سوى ذلك.

وإذا كان هذا هو السبيل إلى رضا الله فإنه بلا شك سيكون محفوفًا بالاختبارات؛ ليظهر الصادق من الكاذب، ولأن هذه الاختبارات تخالف الرخاء الموعود الفوري ولا يمكن أن يكون البلاء جزءا من برنامج انتخابي يستهدف جمع الأصوات.

تخبط القوم أنفسهم، وخالف الكثير منهم ما يدعون إليه!!

إن الذين بنوا حضارة مادية دنيوية بحتة بذلوا لذلك وضحوا

كثيرًا وصبروا على المحن، فما بالك بمن يريد أن يبني حضارة يجتمع فيها خيري الدنيا والآخرة؟!

وقد ضرب الصحابة في ذلك أروع الأمثلة. إذن، فهذا الشعار الطيب في ظاهره –قطعا– يحتاج إلى تفصيل، ولا يمكن أن يتم التعامل معه بحق إلا من خلال فهم المفهوم الذي عني به هذا الفصل وتعميقه، ومن خلال العودة للأصول ونشرها بين الناس.

الفَصْلُ الثَّانِي

مدرسة أُحد

"انتصر المسلمون في بداية الأمر، عصى الرماة أمر رسول الله - ﷺ - فانقلب النصر إلى هزيمة".

لو سألت أغلب المسلمين عن غزوة أحد، ودروسها -عادة- ستسمع الجملة السابقة فقط، هكذا درسناها ولا نعلم غيرها!!

وهو في رأيي اختزال مخل، وخسارة لدروس وفوائد عظيمة لا تنحصر من هذه الغزوة التي نزلت فيها آيات كثيرة من سورة آل عمران بلغت نحو خمسين آية تتلى إلى يوم القيامة.

ولأن الوقت المستقطع قد طلبناه في وقت اضطراب وضيق لا وقت انفراج ورخاء فينبغي أن يكون فيه لحظات نجلس فيها منتبهين على مقاعد هذه المدرسة.

الوقفة الأولى: سرعة الإفاقة.. بداية الانطلاقة

الكثير من الناس للأسف يتعامل مع الرسائل على خلاف مرادها!!

فمثلا:يصلي الطالب ويجتهد في العبادة ويقصر في مذاكرته. فعندما يرسب يوجه نقمته على عبادته وصلاته ويشك أنها السبب!

لا تتعجب؛ إنها طبائع البشر ونرى من صور ذلك الكثير!!

إن هزيمة أحد كانت لها أسبابها التي سنفردها تدبرا. وكانت رسالة قوية لتجنب هذه الأسباب في المستقبل؛ وحتى لا يفهم البعض الرسالة على عكس مرادها فتفتنه الهزيمة بدلا من أن تعلمه وتصلحه ذكر القرآن الكريم غزوة بدر وما كان فيها من نصر وتأييد للمسلمين على قلتهم في بداية الآيات التي تتناول غزوة أحد.

يقول تعالى ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)** ﴾ سورة آل عمران.

إن المحنة تنسي، والألم يأخذ بعقل الإنسان ويشغله، وإن نسي المسلمون نصر بدر في هذه اللحظات فقد يوسوس الشيطان لهم أن دينهم ومنهجهم هو سبب الهزيمة، وليس تقصيرهم وخطأهم.

وهذا درس عظيم في التثبيت وفي توجيه الرسائل وتعليمها، إن أردتم معرفة سبب ما أصابكم تذكروا أولا:

كيف انتصرتم من قبل على قلتكم وضعفكم؟ وكيف أذل الله بكم أنوف صناديد قريش وسادتها؟ ولو كان الأمر بالقوة والإمكانيات، لما انتصرتم في بدر فتأملوا في الأسباب الحقيقية كي تستفيدوا من التجربة!

ونتعلم أيضًا أن الألم والانكسار ليسا من الغايات أبدا، وإن وقعا فلحكمة، ولا ينبغي أن يستسلم لهما المسلم ويطيل البقاء في ظلهما ويقضي عمره باكيًا على اللبن المسكوب، لا يرى غير الحزن والمصائب ولا يذكر الخير والانجازات.

فعلى المسلم إذا ما وقع في محنة أن يكون وسطًا: لا يبرئ نفسه من الإثم والخطأ ويلقي باللائمة على غيره فلا يتعلم أبدا ولا ينصلح، وفي الوقت نفسه لا يستسلم لحزن المحنة ويعقد اللطميات عليها ولا يتجاوزها قط، فالمسلمون عائدون من أحد

بسبعين شهيد وقائدهم ورسولهم - صلى الله عليه وسلم- مصاب، وبهم من الألم ما بهم، فيذكرهم الله ابتداء بغزوة بدر وما كان فيها من نصر على نفس هذا العدو، ويواسيهم ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)** ﴾ **سورة آل عمران.**

إن الاستغراق في الحزن والألم وعدم التأمل والنظر وسرعة إعادة التصحيح يتسببان في زيادة الخسائر وبالتالي يصعبان عملية التعويض في المستقبل.

وفي واقعة أحد: بعدما انتهت المعركة وتوجه جيش المشركين عائدا إلى مكة ندموا على أنهم لم يهاجموا المدينة في وقت ضعف المسلمين وجراحهم فيستأصلوا شأفتهم إلى الأبد، وفكر أبو سفيان جديا في العودة وبدأ يتجهز لذلك، فبلغ الخبر المدينة ولم يمض سوى يوم على المعركة فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم- مقاتلي أُحد تحديدًا للخروج من جديد وصد هذا الهجوم المتوقع.

أمرهم بالخروج واستكمال الجهاد فورًا وهم على جراحهم

وآلامهم النفسية والجسدية، أمر من ذاقوا الهزيمة دون غيرهم بالخروج، وهي غزوة حمراء الأسد التي ذكرت في قوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)** ﴾ خرجوا على الفور واستجابوا للرسول من بعد ما أصابهم القرح، وأخذ يأتيهم من يأتيهم ويخذلهم ويخوفهم من مواجهة المشركين مجددًا، وهم على ثباتهم ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)** ﴾ سورة آل عمران.

فلما علم أبو سفيان بخروج المسلمين وإصرارهم على القتال رغم ما وقع بهم خشى أن يتحول نصره إلى هزيمة إذا ما دخل في معركة جديدة، فيعود لمكة منهزما بدلا من أن يعود إليها رافعا رايات النصر، فتراجع عن رأيه وأكمل العودة إلى مكة، فحقق المسلمون نصرًا معنويًّا وعمليا مهما دون قتال ﴿ **فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)** ﴾، نصر معنوي يساعد بقوة على تجاوز

المحنة والوقوف على أرجلهم من جديد، ونصر حقيقي أن حفظوا المدينة من الهجوم والذي لا يعلم ماذا سيكون أثره.

تخيل لو لم يستفيقوا سريعا؟! تخيل لو لم يسيروا فوق جراحهم ويضمدوها سريعًا ويخرجوا لصدّ الهجوم؟! كانت الخسائر ستتضاعف وعلاجها سيكون أصعب بكثير. لقد بدأت بهذا المعنى لأنه يغيب عن الكثيرين؛ ولأننا صرنا في وقت نكثر فيه من الشكوى واللطميات ويقل فيه العمل والبذل، فتزداد الأوضاع تعقيدًا وصعوبة.

الوقفة الثانية: سبب سبب الهزيمة

ليس في العنوان كلمة مكررة، فإننا ندرك أن معصية الرماة لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وتركهم مواقعهم في هذا اليوم هو ما أدى إلى ما وقع لأشرف جيش على وجه الأرض؛ ولكن القرآن لم يهتم فقط بذكر السبب الظاهر، ولكن نبه لعلاج الأمر من جذوره وعلاج الأسباب التي أدت إلى السبب، ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ**

وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾ سورة آل عمران.

منكم من يريد الدنيا.......

إن حب الدنيا والغنيمة هو ما أدى لترك البعض للأمر، فإذا أردنا علاج المعصية لا بد أن نعالج أسبابها.

إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وهي التي تحث الكثيرين على المعصية في مواطن مختلفة بدرجات مختلفة؛ لذا فلا تترك نفسك غارقا في الشهوات متعلقا بالدنيا زاهدا في الآخرة وما فيها ثم تنتظر التوفيق وقت الاختبار والمحنة. ينبغي أن تراقب عدادات القلب دوما وتوازن القوى داخله؛ لتطمئن أنه لم ينحرف ولم تتغير خريطته بشكل يجعلك عرضة للخذلان والهزيمة، ليس بالضرورة أن تكون الهزيمة في معركة حربية، بل أن تنهزم أمام رشوة، أو أمام امرأة لا تحل لك، أو أمام سرقة تعرض أمامك، أو أمام ظالم يستخدمك لخدمة أهوائه أو ما إلى ذلك.

﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)** ﴾ سورة التوبة.

إن السيطرة على حب الدنيا في القلب، وذكر الموت والآخرة والتعلق بها هما أهم صمامات الأمان لتجنب المعاصي وتقليلها. وإن احتاج ذلك إلى ترك بعض المباح؛ تهذيبا للنفس وتأديبا لها، فتقطع الطريق من بدايته وتقلل على الشيطان والنفس الأمارة بالسوء مداخلهما.

إن الحب الزائد للدنيا باب شر على الفرد المبتلى به، وإذا كثر المبتلون به في الأمة أصبح باب شر على الأمة كلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتِها. فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءُ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ. فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ" رواه أبو داود وصححه الألباني.

وإذا كان الحب الزائد للدنيا هو باب المعصية، فإن تواتر المعاصي باب للمعاصي الأكبر وباب لما هو أكبر، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)** ﴾ سورة آل عمران. فعلى المسلم أن يجدد

التوبة باستمرار وينقي نفسه أولا بأول حتى لا تجتمع عليه المعاصي ولو كانت صغيرة فتهلكه، ويخذله الثبات في أشد أوقات احتياجه إليه.

وهنا وقفة!

إن الأثر السيئ للمعاصي على تقدم الأمة، وعلى الجهاد والنصر ينبغي أن يكون دافعا للمسلم على ترك المعاصي لا على ترك العمل للأمة والجهاد في سبيل الله، فإن في هذا الزمان قلب هذا المفهوم بشكل عجيب عند الكثيرين، تجده يترك الدعوة إلى الله؛ لأنه ذو معاصي ويستحيي أن يكون داعية يأمر بالمعروف وينهى المنكر وهو مقصر في المعروف وواقع في منكر، ويخذل الناس عن نصرة إخوانهم المستضعفين المظلومين في أنحاء الأرض بحجة أنتم أصحاب معاصي لا تصلحون.

وقد قابلت بنفسي رجلا ترك الصلاة لأنه لا يغض البصر، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلما رأى أنه لا ينتهي بدلا من أن يراجع صلاته ويجودها ويجاهد نفسه رأى أن الأليق أن يترك الصلاة!!وهذا عجب عجاب!!

إن الحرص على الثبات في مواطن المحن ينبغي أن يدفعك

لترقية نفسك وإصلاحها، ولكنه ليس مطلوبا منك أن تكون ملاكا قبل أن تقوم بأي دور في خدمة الأمة، وإلا فكيف يغفر للشهيد ذنوبه مع أول دفقة دم؟! وإلا لو كانت الملائكية شرطا للعمل فهل للشهيد ذنوب أصلًا؟!

قال تعالى﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)** ﴾ سورة الصف. إن من أجرهم ﴿ **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾، فليست الملائكية شرط في العمل والبذل، ولو انتظرت تحقيقها ستنتظر إلى يوم القيامة.

الوقفة الثالثة: شهداء أُحد.. الوفاء للبذل، لا للنصر

لشهداء أحد مكانة عظيمة في نفوس المسلمين وفي نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قبلهم، وهم أشهر شهداء العهد النبوي يكثر ذكرهم، وإلى الآن يزور المسلمين قبورهم في المدينة المنورة، وكيف لا؟! وكان هذا موقف النبي - صلى الله عليه وسلم- منهم حتى إنه حرص على زيارتهم في آخر حياته

قبيل وفاته وقد مر على الغزوة نحو ثمان سنوات.

إن وفاء النبي - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لشهداء أحد وإعلاءهم لذكرهم ليعلمنا أن الوفاء والإجلال يرتبطان بما بذله المرء لا بالنتيجة النهائية للمعركة ككل!

إن هؤلاء الأبطال قد قضوا نحبهم، وهم تحت حصار مطبق تحصدهم السيوف والرماح والسهام من كل جانب وهم ثابتون يحمون رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ويضعون نحورهم دون نحره راضين بكل ما يصيبهم " لا خير فيكم إن خلص إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وفيكم عين تطرف " هذا شعارهم، وحتى عندما أشيع خبر مقتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قام إليهم أنس بن النضر رضي الله عنه " ألا قوموا وموتوا على مات عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم-"، واستشهد أنس مع رفاقه الأبطال، فعرف لهم النبي - صلى الله عليه وسلم- قدرهم، وعرفت الأمة قدرهم من بعده، وأعلى الله ذكرهم؛ فما زلنا نتدارس بطولاتهم إلى اليوم ونقرأ ثناء الله عليهم في القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

أما في زماننا فقد أصبح النصر شرط علو الذكر والمدح ولو

كان بباطل، وينسى الباذلون المضحون بحق ما لم ينتصروا، وهذا يخالف الصواب والمنهج القويم، ويبدل المفاهيم عند الناس، ويصبح الوفاء للقوي المنتصر ولو بباطل، وينغمر من بذل وضحى بحق في بحار النسيان فقط لأنه ابتلي بالهزيمة.

الوقفة الرابعة: من صفات المنافقين

في غزوة أُحد تحرك الجيش من المدينة وقوامه نحو ألف جندي، وقبل الوصول رجع المنافقون وتركوا الجيش ليصير عدد الجيش نحو سبعمائة جندي، تركوه والحجة ﴿ **قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ أي لو نعلم أن هناك قتال سيحدث بينكما لأكملنا معكم لكن لا نظن أن هذا سيحدث!!!

جيش المشركين الضخم قادم من مكة، وله ثأر عظيم قد حشد لأجله طوال الشهور الماضية، جيش المسلمين خرج ليلاقيه خارج المدينة ويصد هجومه المرتقب، ثم يقول هؤلاء: لا نظن أن هناك قتالا سيدور ولا حاجة لكم بنا!!

إن كانت هذه هي المقدمات فكيف بأي حال من الأحوال،وبأي منطق أن النتيجة المتوقعة ألا يحدث قتال؟!

نعم إنه منطق المنافقين! إنهم لا يخجلون ولا يتورعون أن

يحتجوا بأي شيء يحقق لهم هدفهم مهما خالف العقل والمنطق ومهما فاح منه الكذب والإدعاء، ولا يزال السائرون على نهجهم موجودين بيننا: يحولون العدو إلى صديق والصديق إلى عدو والصدق إلى كذب والكذب إلى صدق، حتى إنك تجد ما كان يقال على سبيل النكتة منذ سنين قد أصبح حقيقة واقعة يؤمن بها الكثيرون، وأن ما كان جزءا من المبادئ والعقيدة قد تحول إلى نكتة تقال بسخرية ويبتذل في المجالس.

﴿ الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨) ﴾ سورة آل عمران

سبحان الله!

يقولون لو أطاعونا ما قتلوا. أي : لو أطاعونا في القعود وعدم الخروج للعدو ما قتلوا، وهم من قالوا منذ وقت يسير أنه لن يقع قتال أصلا ورجعوا بهذه الحجة!

وهذه من صفاتهم المتكررة. التناقض الواضح وأيضًا عن الخجل أو الاستحياء منه وعدم التفكير حتى في حججهم الباطلة؛ لذا قد صار في زماننا من النادر- للأسف- أن تجد شخصية عامة ليس لها سجل طويل من مقارنات (قبل و بعد) وتغير الموقف

والتصريح بتغير المصلحة، وهذا رحمة من الله بالمؤمنين أن يكون المنافق والكذاب ضعيفي الذاكرة أو لا يستحون من التناقض كي ييسر على المسلم اكتشاف تلك الصفة الخفية فيحذر وينتبه ﴿ **وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)** ﴾ **سورة محمد**، ولكن -للأسف -قل من يحذر وينتبه!!

ومن هنا أيضًا ترى أن التخذيل، ولوم الطرف -الذي يبدو أضعف سواء في المواجهات مع العدو الخارجي أو في المشكلات الداخلية- أمر ليس بجديد يستهدف أن يبرئ المتحدث نفسه من المسئولية ويدفع عن نفسه صفات النقص ولوم اللائمين، فما يزيد نفسه إلا نقصًا ولومًا وهو لا يدري، تختلف صوره وعباراته والمؤدى واحد، فالكلمة العامية الشهيرة (يستاهلوا....إيه وداهم هناك) ما هي إلا تطور طبيعي لمقولة المنافقين ﴿ **لَوْ أَطاعُونا مَا قُتِلُوا**﴾.

الوقفة الخامسة: الشمولية الغائبة

في سورة آل عمران جاء ذكر الجهاد والمعركة كما تبين في آيات غزوة أحد.

وفي وسط الآيات المتناولة للغزوة جاء النهي عن أكل الربا،

جاء الحث على حسن الخلق،وعلى الانفاق في سبيل الله، والعفو عن الناس والحث على التوبة والاستغفار.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ سورة آل عمران.

ومن قبلها جاءت آيات مناظرة أهل الكتاب ومناقشة عقيدتهم ودعوتهم إلى التوحيد، وجاءت آية الخيرية العظيمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ وغير ذلك من المعاني الجليلة.

إن أثر الإسلام الحقيقي لن يرى في حياة المسلمين إلا إذا اهتموا بأبوابه كلها واعتنقوه بشموليته كما ذكرنا في سورة البقرة.

الكل -بالطبع- يدعي الشمولية، ولكن إذا نظرت إلى أدائهم العملي وجدت من يهتم بالعلم والعلم فقط، ومن يهتم بصناعة الحياة وبناء الحضارة ولا يعبأ بغير ذلك ويطوع كل الأدلة لما يريد فقط، ومن يهتم بالدعوة فقط، إلى حد ترك بعضهم للعلم الواجب الذي لن تقوم الدعوة إلا بإذنه، ومنهم من يهتم بالحديث عن الجهاد والبلاد المحتلة في كل مكان فقط.ولا تجد له أي جهد وتوجه لتعلم الدين أو الدعوة إليه.

وترى كثيرًا منهم قد تخلى عن حسن الخلق ومكارمه، وترى من يعتني بالأخلاق ومحامدها ويترك كل ما سبق، ولن تقوم للأمة قائمة حقيقية إذا ظلت هكذا؛ تأخذ بعض الإسلام وتترك بعضه مهما ادعى الجميع الشمولية ومهما أنكر الجميع وقوعهم في الانتقائية.

إن هذا المعنى من أهم المعاني المفقودة وأجلها، ومن المهم التذكير بها.وقد ذكرته في الفصل السابق وذكرته هنا، ولو تتبعته في كتاب الله لربما ذكرته في كل فصل. ولكن حرصًا على عدم التكرار لن أذكره في الفصول القادمة وإن وجد. ولكن ليعلم

القارئ الكريم أن عدم ذكر هذا المعنى الهام تحديدًا في الصفحات القادمة لا يعني عدم وجوده.

الوقفة السادسة: أسطورة (ليس وقته)

ها نحن في القرن الخامس عشر الهجري، ومازلنا نقرأ كتاب الله ونتعلم أسباب النصر وأسباب الهزيمة، وستظل القصة تتلى إلى يوم القيامة.

أنزلت آيات غزوة أحد في سورة آل عمران في أعقاب واقعة مؤلمة وفي وسط أحزان وآلام شديدة، وفي ظل تحدٍّ كبير يواجه المسلمين؛ لرد اعتبارهم والوقوف على أرجلهم من جديد وحماية دولتهم الوليدة، ومع ذلك نزلت السورة وبها ذِكر للأخطاء والعتاب عليها

هكذا علنا!!

في آيات تتلى وليس وحيا عاديا، أو رؤية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم- يخبرها خاصة أصحابه وينتهي الأمر. لم تتأخر السورة حتى ينتصر المسلمون أولا في معركة من المعارك التالية ثم تعاتبهم، وكيف سينتصرون -أصلا- في معركة لاحقة إذا لم يعلموا أخطائهم ويقلعوا عنها؟!

إن من بيننا أناسا أخشى لو نزلت عليهم سورة آل عمران لقالوا:)ليس وقته).

إن رافضي النصح -تحت أي مسمى -لا يصنعون شيئا ذا بال في تاريخ الأمم.

إذا حدثته وقت الرخاء، قال:ليس هذا وقته فإني مشغول بالبناء!

وإذا حدثته وقت الشدة، قال: ليس هذا وقته دعني حتى أتجاوز المحنة أولا!

وهل ستتجاوزها وأنت مازلت مقيما على الأسباب التي أوقعتك فيها؟!

إذا نبهت على المعاصي والأخطاء قال ليس وقته ستشمت بنا الأعداء!

وهل أشمتت سورة آل عمران الأعداء؟!

وهل ستنجو من شماتة الأعداء إذا بقيت على أباطيلك التي ستقودك لمزيد من الخسائر والمصائب؟!

إن على الناصح اتباع المنهج القرآني المذكور في الوقفة الأولى؛ حتى يكون نصحه دفعا وبناء للمنصوح سواء كان

المنصوح فردا أو مجتمعا، لكنَّ على المنصوح -في الوقت نفسه- أن يتقبل النصح وينظر في نفسه وأخطائه، ولا يتعلل بعلل واهية تبقيه في مكانه إلى الأبد.

وليعلم كل مسلم: أنه طالما أن وقت سماع وقبول النصح الصادق المستند للقرآن والسنة لم يأت فوقت النهوض والنصر أيضًا لم يأت.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

مدرسة العدل

هو مما أجمعت على حبه قلوب البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم، ومما تتوق إليه الروح وتحلم به النفس وتسعى إليه وتطالب به.

ولكن -للأسف- رغم أن حبه وطلبه هو الغالب في البشر فإن تحققه كثيرًا ما يكون هو الغائب عن حياتهم وواقعهم. إنه العدل الذي لا يمكن أن يخلو الحديث عن ترتيب الأوراق والأفكار من أجل الإصلاح دون ذكره.

ولكن الأهم دون الحديث عن وسائل تحقيقه وأهميته، في هذه اللحظات من الوقت المستقطع أن نبحر معا مع هذا المفهوم وما يتعلق به، وستكون سورة النساء مرجعنا في الدراسة كما كانت سورة البقرة في الفصل الأول.

الوقفة الأولى: ليس في الحكم فقط

لقد ارتبط مفهوم العدل في عقول الكثيرين بالحكام والقضاء وما شابه؛ كلما سمعوا آية أو حديث أو مقولة حكيم عن مدح

العدل أو ذم الظلم أسقطوها على الفور على القاضي والحاكم ولم تتجاوز أذهانهم هذا المفهوم النمطي القاصر. وبالتالي لم يتجاوز واقعهم الحضيض الذي يعيشون فيه.

إن سطحية الفهم يكون لها دور أحيانا في نماذج الانفصام التي نراها، فتجده يتحدث عن العدل ليل نهار وينتقد من يحيد عنه وربما يتظاهر ويجازف بحياته لأجل تحقيقه وهو في بيته ظالم! أو في عمله ظالم! أو في رأيه وتقييم الآخرين ظالم بعيد كل البعد عن الموضوعية والإنصاف!!

والمتأمل في سورة النساء يجدها تقوم هذا القصور وتوسع مفهوم العدل في الأذهان، فتتناول العدل بين الزوجات حال التعدد ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ(٣)** ﴾

وعن العدل مع اليتيم وحفظ حقه ﴿ **وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ**

عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا(٦) ﴾

وعن العدل مع عامة المسلمين ومع الشركاء وحفظ أموالهم وعدم أكلها بالباطل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)** ﴾

وعن العدل حال الحكم بين زوجين مختلفين وإرادة الإصلاح والصدق فيها ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)** ﴾

والأمر برد الأمانات إلى أهلها ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا(٥٨)** ﴾ بجانب الأمر بالعدل في أداء المواريث، والعدل مع العدو وهو ما سنفرد له وقفة خاصة.

إذن، فإذا قرأت آيات الحث على العدل والنهي عن الظلم أو أحاديثه عليك أن توسع أفقك، وأن تسقطها على نفسك قبل أي أحد؛ كي تعلم أين أنت منها؟ حتى لا تكون واقعا في ظلم

الآخرين، وأنت لا تشعر. وتحسب أنك تحسن صنعا إذ إنك لست صاحب جاه ولا سلطة قضائية رسمية، فكلنا قاض في محيطه وكلنا معرض للوقوع في الظلم، فاحذر وانتبه وراجع نفسك جيدا!!

الوقفة الثانية: تحديد الحقوق.. أولى خطوات العدل

كي يتحقق العدل في أي مجتمع وعلى أي مستوى بداية من العدل بين أفراد الأسرة و كذلك العدل في دواوين الحكم والقضاء لا بد أن تتحدد حقوق كل فرد وواجباته حتى يكون هناك قاعدة يرجع إليها للفصل، وحتى لا يكون للظالم حجة في ظلم الناس.

لذلك تجد -دوما- في الأماكن التي يكثر فيها الظلم ينخفض فيها الوعي ولا بد.

يحرص الرجل على تجهيل زوجته بحقوقها عليه وبحقوق أولاده، ويحرص أصحاب العمل والشركات على عدم وضع لائحة واضحة ثابتة يرجع إليها الناس بل يكون تقييم المواقف مبنيا على الهوى، فإن وافق الهوى شيئًا من القوانين أخرجت من الأدراج وأعلنت، وإن لم توافق القانون واللائحة فلا قانون ولا لائحة، وكذلك على مستوى المجتمع كله، فإن الحريص على العدل لا يضره وعي من تحته.

بالعكس ففيه النفع والمصلحة وحمايته من الوقوع في الظلم دون أن يشعر، وقد كان الخلفاء الراشدون دوما يحثون الناس على تصويبهم إذا حادوا عن العدل، وأنى للناس أن يصوبونهم وهم لا يعلمون حقوقهم؟!

ولا عجب أن يجتمع في سورة النساء الحث على العدل مع ذكر الحقوق وتحديدها!

وعلى سبيل المثال لا الحصر: جاءت سورة النساء تحدد حقوق الورثة في آيات بليغة معجزة، وذكرت شيئًا من حقوق الأيتام كما أسلفنا، وذكرت شيئًا من حقوق الزوج والزوجة، وقال تعالى﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)** ﴾

وشيئًا من حقوق المطلقة قال تعالى ﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى**

بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾

وحقوق الوالدين والجيرة والصحبة والمساكين وابن السبيل ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾

وحقوق المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان في انقاذهم والدفع عنهم ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) ﴾

وحدود صلاحيات العوام في إذاعة كل ما يسمعون دون عودة لأهل التخصص والمسئولية ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾

وحقوق المقتول خطأً سواء كان من المسلمين أو الأعداء

المعاهدين ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾

وحقوق العدو الذين ينطق بالشهادة أثناء المعركة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾

وحقوق العدو الذي لم يسلم كما في الآيات (١٠٥ إلى ١١٣)

وحقوق من يلقي إليك التحية ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ وهذه مجرد أمثلة وليس حصرا، وهذا في سورة النساء وحدها. فتأمل في أهمية الأمر!

الكل يعلم حقوقه علينا حتى العدو، والكل يعلم واجباته،

فتصبح المعرفة ووضوح الأدوار والحقوق عقبة كئودا أمام الظلم ودرعا قويا للعدل من هجمات الظالمين ومكرهم، أيا كان نوع الظالم ونوع صلاحياته.

الوقفة الثالثة: أسباب الظلم

ودائما ما يأتي الدواء القرآني لعلل المجتمع بالتركيز على أسباب المرض وليس مجرد العرض، كما جاء في أسباب هزيمة أحد، يشير القرآن الكريم إلى أهم أسباب الظلم وأشهرها؛ كي نتقيها من البداية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ سورة النساء.

﴿ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ أن يتعارض العدل مع مصلحة الإنسان نفسه، فيحيد عنه؛ كي يحافظ على مصالحه ومكتسباته بغير حق، ومن الناس من لا يفعل لك ابتداء، ولكن إذا وقع ظلم لآخر وصب هذا الظلم في مصلحته سكت عنه ولم يبين! ويظن أنه بذلك في حل، بل عليه أن يقول الحق ويتمسك بالعدل ويعيد الحق لأصحابه

وإن ضره ذلك في نفسه وماله.

﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ وهذا مما تعم به البلوى ليس فقط على مستوى العائلات والقبائل، بل مستوى الأحزاب والتيارات والجماعات، فما ينفع قومي أقول به ولو كان ظلما، وما يضرهم أحاربه ولو كان عدلا!

فيالها من فتنة واختبار! نسأل الله أن يعافينا منه ويثبتنا فيه إذا وقع!

أن تخير بين قولة الحق وبين أحبابك وأقربائك بل بين قولة الحق وبين الوالدين الذين حث القرآن نفسه على برهما، ولكن البر وصلة الأرحام لا تكون بالباطل، والعجيب أن بعض الناس يأتي في مثل هذه المواقف ويتخذ جانب الباطل قائلاً: اعذرني فموقفي صعب ولولا القرابة لقلت الحق!!

فسبحان الله! وهل كنت تريد أن تمتنع عن قول الحق والعدل في حال عدم وجود القرابة؟!

إن العدل مع عدم وجود مصلحة أمر طبيعي يقدر عليه كل أحد، ولكن العبرة بموقفك حال تعارض مصلحة أحبابك واستقرار صلتك بهم مع الحق، فاسأل الله التثبيت!

﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ أما غنى المرء فمفهوم،

إذ إن الإنسان قد يحيد عن العدل في حق الغني طمعا في إغداقه أو خوفا من بطشه وهو مما كان سببا في هلاك السابقين، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في شأن المرأة المخزومية: "إنما أَهلَكَ الذين قبلَكم، أنهم كانوا إذا سرَق فيهمُ الشريفُ ترَكوه، وإذا سرَق فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرقَتْ لقطَعتُ يدَها" رواه البخاري ومسلم. أما الفقير فلم يحيد المرء عن الحق لأجله؟

إن من الناس من تدفعه العاطفة للوقوف في جانب الذي يبدو ضعيفًا دائمًا وإن كان مخطئا، فلو كان المعتدي هو الفقير وقد رأى الشاهد اعتداءه بنفسه تجده يشهد معه تعاطفا معه ونكاية في خصمه الغني، وهذا ليس من الإنصاف والرحمة في شيء، فإن الرحمة بالضعيف لا تدعو لتأييده في مواطن خطئه، وأن قوة القوي وغناه لا تدعو لظلمه في مواطن صوابه.

وقد أضافت سورة المائدة سببا آخر من أسباب الظلم والحيود عن الحق في الآية المتشابهة مع آية النساء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)** ﴾ سورة المائدة.

إن كراهية صاحب الحق كثيرا ما تدفع الإنسان إلى ظلمه، وإن مواطن الشهادة وإقامة العدل ليست موطنا لتنفيس مشاعرك القلبية ولا موطنا للكيد والانتقام، فعلى المسلم أن يشهد بالحق والإنصاف وإن كان المشهود له عدوا بغيضا سيئا، كما كان عليه أن يشهد بالحق والإنصاف عندما كان المشهود له حبيبا قريبا، وقد ابتلينا في زماننا بتفشي هذا الداء إلى حد لا يتصور، فنفس الفعل يأخذ حكما إذا صدر عن الحبيب ويأخذ حكما آخر إذا صدر عن الخصم، يأخذ وصفا حميدا إذا أتى من ذي صلة ويأخذ وصفا ذميما إذا أتى من غيره.

وكل ذلك يدخل في اتباع الهوى الذي جاء النهي عنه ﴿ **فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)** ﴾ وقد ختمت الآيتين بذكر أن الله خبير مطلع على أعمال العباد، فإن فررت بفعلتك في الدنيا وخدعت الناس، فكيف ستخدع العليم الخبير، فتأمل!

الوقفة الرابعة: نموذج عملي

القصة هي قصة بني أبيرق وسرقة الطعام والدرع من بيت رفاعة بن النعمان.

فقد سرق رجل من بني أبيرق الدرع وألقيت التهمة على رجل

من اليهود يقال له: زيد بن السمين، وكانت الأدلة الجنائية كلها ضد اليهودي؛ فالدرع كان منغمسًا في وسط طعام دقيق أو شعير ولما شعر السارق بالخطر ألقاه في بيت اليهودي فدلت آثار الدقيق على بيته، وبالفعل وجدوه عنده. فجاء اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- يهتفون، وجاء المسلمون من الأنصار يدافعون عن بني أبيرق، وكاد حكم النبي - صلى الله عليه وسلم- يميل ضد اليهودي نظرا لتوافر الأدلة، فأنزل الله -جل جلاله- آيات من القرآن الكريم تتلى ويتعبد بها إلى يوم القيامة، ليبرئ اليهودي من التهمة. ويثبتها على ذاك السارق من المسلمين.

قال تعالى ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا**

يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ
خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢)
وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيمًا (١١٣)﴾ سورة النساء.

إن في هذه القصة- التي كانت سببا في نزول هذه الآيات الكريمات- مثالا عمليا لكل ما ذكرناه عاليا، ولعلها من حكمة الله أن يكون المظلوم في هذه القصة من اليهود دون غيرهم؛ إذ إنهم ألد أعداء المسلمين على الإطلاق بل من أكثر الأقوام التي تمردت على أوامر الله وقتلت أنبياءه في التاريخ كله، حتى لا يكون هناك أي ثغرة للمبررين في العهود اللاحقة.

السارق الحقيقي مسلم، والمدعى عليه بالباطل يهودي، الأدلة كلها ضد اليهودي، والعواطف أيضًا، وهل تستبعد السرقة عن اليهودي مثلا؟! إنهم حاولوا قتل النبي - صلى الله عليه وسلم- نفسه!!

هل يستغرب أن يحاول أحدهم سرقة درع من مسلم؟!

هل من مصلحة المسلمين في هذه الظروف الدقيقة التي تمر بها دولتهم الوليدة أن يعلن خبر كهذا أن هناك مسلما سرق؟!

أم أنه مفيد جدا للمسلمين الذين يعانون من إيذاء اليهود وغدراتهم أن تقع التهمة على اليهودي؟!

هل تقطع يد المسلم أم تقطع يد اليهودي التي ربما تكون قد تربصت بالمسلمين في غير هذا الموضع؟!

إن كل هذه الحسابات المصلحية القذرة لا يعرفها الإسلام، فالحق هو الحق والعدل هو العدل، لا يجامل الإسلام أحدا ولا يحيف على أحد، فمبدأ (أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب) مبدأ لا أصل ولا وجود له في مبادئنا، إذ إن الصواب (أنا والحق على أي حد ولو كان نفسي).

هذا ما تعلمناه من الإسلام وما أوضحه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عندما تحدث عن نصرة الأخ ظالما أو مظلوما، ولله در الصحابة الذين تعجبوا من ظاهر النص الذي يبدو مخالفا لما تعلموه من النبي – صلى الله عليه وسلم– وإن كان مقاربًا مرضيًا للأهواء البشرية فسارعوا بالاستفسار ليعلمهم معلم البشرية الأول وأعدل من مشى على الأرض (انصر أخاك ظالمًا

أو مظلومًا. فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره)**صحيح البخاري**.

ولم تكتفِ الآيات بإدانة المسلم وتبرئة اليهودي بل أدانت ووبخت كل مسلم مال إلى المسلم وجادل عنه وهو يعلم أنه مذنب بأشد عبارة وأقوى لفظ وبلا مواربة فيعلم الكل حقوقه وواجباته.

الوقفة الخامسة: الشعب حامي العدالة

إن مسئولية إقامة العدالة مسئولية جماعية يتحملها المجتمع أجمع، فقد جعل الإسلام مظلة من الرقابة الأخلاقية والمجتمعية؛ كي تعالج آثار النقص البشري في التحقق والتثبت لا سيما في الأمور الجنائية وما شابه، ففي القصة السابقة كانت الأدلة كلها ضد اليهودي، ولكن المسلمين الذي يخشون ربهم ويتقونه لا يتعاملون بهذا الجفاف الروتيني الإجرائي أبدا، فعلم الإسلام المسلمين أخلاقا وأمرهم بأوامر تجعل من الضمير الحي والإيمان القوي والخلق القويم حماية للمظلوم من جور الأدلة وبلاغة المحامين، وجاء الوعيد هنا في الآيات قاسيًا والأوصاف رادعة لا يتحملها مؤمن.

(اقرأ الآيات مرة أخرى بتأنٍ)

وفي ذلك أيضًا قول النبي – صلى الله عليه وسلم– (إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها) **صحيح البخاري**.

فالإيمان باليوم الآخر ويقظته في النفوس أثره ليس روحانيًّا فقط يبكي المرء بسببه في صلاته وأثناء تلاوته لكتاب الله، بل إن أثره ممتد في دنيانا هذه ومؤثر على تعاملاتها، فالحياة الدنيا ليست نهاية المطاف إنما هي حلقة ومرحلة في حياتنا لا أكثر، فما أشقى الذي يضيع آخرته بمصلحة دنيوية عاجلة!!

لذا فإن من خطوات تحقيق العدالة في المجتمع المسلم إحياء مفاهيم الإيمان بالله واطلاعه على النفوس والإيمان باليوم الآخر وأن ما أخذته في الدنيا بغير حق سيكون وبالا عليك يوم القيامة، فالأمر لم ينته هنا، الأمر في حقيقته لم يبدأ بعد.

الوقفة السادسة: رسالة إلى القاضي

والقاضي هنا ليس صاحب الوشاح المتربع على المنصة كما ذكرنا، بل هو أنا وأنت وكل من له حكم على شيء ولو بالرأي والتقييم الذي لن ينبني عليه أثر في حياة من نقيم، كتقييم

الشخصيات العامة والدعاة والتيارات المختلفة.

اعلم أن العدل نعمة كبيرة ومنحة عظيمة من الله، وأنك -بعقلك وحرصك فقط- لن تحقق تلك العدالة وذاك الانصاف إلا إذا وفقك الله له، إذ إن الله تعالى قد قال لنبيه - صلى الله عليه وسلم- وهو من هو ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)**﴾ سورة النساء.

فليكن اعتمادك دوما على رب العالمين، واسأله دوما أن يريك الحق حقا ويرزقك اتباعه، وأن يريك الباطل باطلا ويرزقك اجتنابه، وأن يرزقك العدل عند الغضب والرضى مع العدو والحبيب، فلا تعتمد على نفسك وذكائك ومعلوماتك ورؤيتك فكلها قد يصيبها القصور وتنطلي عليها ظواهر الأمور، فأخلص لله في طلب الحق يهدك إليه بإذنه ورحمته وفضله.

الوقفة السابعة: من صور عدل الله تبارك وتعالى

﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ**

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ سورة آل عمران.

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ سورة آل عمران.

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ سورة التوبة.

إن عدل الله تعالى يفوق كل تصور، ولكني -في سياق موضوعنا- حرصت على ذكر هذه الآيات كنماذج فقط؛ لنتعلم من كتاب ربنا أن التعميم ليس له مكان في شرعنا، فإن الله تعالى ذكر في أهل الكتاب الأمين والخائن وذكر في الأعراب المنافق والصادق.

فأنى لنا أن نقع نحن في التعميم وأن نحمل أحدا أوزار غيره ومساوئه؟!

وهل يقبل أحد منا أن يتحمل أوزارًا وصفاتٍ ليست فيه لأنه

وقعت مع من يشترك معه في الجنسية أو التوجه أو الدين؟!

ينبغي أن ترى إجابة هذا السؤال عمليا في سلوكك أنت أثناء تعاملك وحكمك على الآخرين.

الوقفة الثامنة: انظر حولك

انظر حولك وتأمل كيف ضاع هذا المفهوم في زماننا ومجتمعنا؟!

انظر وتأمل كم ندفع ثمنا باهظا بسبب فقدانه؟!

وكيف أن ضياعه سبب رئيسي في هذا التخبط الذي نعيشه؟! والذي دفعنا لهذه الوقفة التأملية القصيرة.

انظر كيف صار الحكم على الفعل مرتبطا بفاعله لا بأصل جواز الفعل أو عدمه؟!

كيف يغير المرء حكمه على الشيء وعلى الشخص ألف مرة حسب مصلحته؟!

صار من النادر أن تجد إنسانا معياره ثابت في الحكم وإبداء الرأي، وأصبح من النادر أن تجد إنسانا ليس له تناقض واضح في تقييم فعل تكرر خلال فترة وجيزة ولكن مرة من خصم ومرة من حبيب.

إذا قال الحليف أو فعل فهو مصيب ولو ارتكب الكبائر وله مبرراته المقنعة، وإذا قال المخالف أو فعل فهو مخطئ ولو كان على الصواب المبين، إذا أفسد فيهم القوي لم يتركوه فقط بل أيدوه وصفقوا له وبرروا، وإذا أثيرت مجرد شبهة على الضعيف دون دليل أقاموا عليه الحدود، فلم تعد هناك ثقة ولا تراحم ولا قواعد ثابتة يعود المجتمع إليها ليلملم شعثه ويعالج جروحه ويصوب توجهه، ولم يعد هناك مقاييس واضحة نورثها لأبنائنا ليعلموا بها الصواب من الخطأ والمصيب من المخطئ؛ لذا فإن هذا المعنى وهذه المفاهيم من أجل ما ينبغي أن نعيه جيدًا ونورثه لأبنائنا من بعدنا فإنه لا قيام لهذه الأمة بدونه ولا تآلف ولا استقرار إلا بتحققه والله المستعان.

الفصل الرابع

على أبواب التيه

الوقفة الأولى: وحدة العقيدة وتعدد الشرائع

إن العقيدة التي جاء بها الأنبياء والمرسلون إلى البشرية عقيدة واحدة ثابتة، ألا وهي دعوة الخلق لعبادة الله وحده لا شريك الله في ملكه وخلقه وأمره

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ سورة الأعراف

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ سورة الأعراف

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ سورة الأعراف

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ سورة هود

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾ سورة المائدة

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ سورة النحل. وغير ذلك من الأدلة التي لا تحصى.

وأما الشرائع والعبادات أو ما يمكن أن نسميه بالأحكام الفقهية فيختلف من أمة لأخرى ومن نبي لآخر؛ ليبتليهم الله فيما آتاهم وليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ سورة الأنعام.

وجاء في سورة آل عمران على لسان نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾

وقد جاء القرآن الكريم بالشريعة الأخيرة المهيمنة على كل ما قبلها كما جاء في الآية ٤٨ من سورة المائدة والمذكورة عاليًا، ولذا يقول جمهور علماء أصول الفقه (شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يكن في شرعنا ما يخالفه)، فلا يصح الاستدلال بشرع من قبلنا إن خالف شيئًا من شرعنا.

لماذا هذه المقدمة وما علاقتها بالموضوع؟

هذه المقدمة هي أصل من أصول الموضوع الذي نحن بصدد

مناقشته، إذ إنه ينبغي للمسلم أن يعلم كيف يستدل؟ وبأي شيء يستدل وهو يعتقد ويتكلم ويطرح الحل ويناقشها؟

الوقفة الثانية: اذهب أنت وربك فقاتلا

منذ حداثة سني وأنا أتابع تعليقات الكبار على ما يحدث لأمتنا من مصائب في شتى بقاع الأرض، وعلى رأسها بالطبع ما يحدث في فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، تابع جيدًا فستجد أكثر التعليقات:

(ربنا يمهل ولا يهمل) (ربنا لن يتركهم) (سيرينا الله فيهم آية ولا بد)

بل تابع حتى الدعاء في المساجد ستجد أكثره) اللهم خذهم كما أخذت عاد وثمود، اللهم أهلكهم كما أهلكت قوم لوط، اللهم أغرقهم كما أغرقت فرعون...)

ويتعجب الناس من تأخر هذا الإهلاك، رغم ما يقع على أيدي الظالمين من بغي واعتداء على المقدسات والأرواح، حتى إن منهم من يفقد أعصابه من شدة ما يرى فيقول) أنا مش عارف هو ربنا سايبهم ليه(، وقد آن الأوان لتعرف.

إن الأمم التي اتبع فيها الموحدون أنبياءهم وآمنوا بهم ثم لم

يفعلوا شيئًا تجاه أعدائهم سوى الصبر على الأذى والدعاء حتى أتى النصر دون تدخل منهم بإهلاك الكفار الظالمين إنما فعلوا ذلك لأن هذه كانت شريعتهم؛ هم آمنوا بالله ورسله والتزموا بالسمع والطاعة، وما أمروا حينها سوى بالصبر والجلد والدعاء فتمسكوا بذلك حتى جاء الإهلاك من قبل الله للكفار الظالمين بالريح تارة وبالصيحة تارة وبالغرق تارة أخرى.

فكيف تقعد تنتظر هذه النتيجة وشريعتك مختلفة؟! لم تأمرك بالصبر والدعاء فقط بل أمرتك بالتحرك لدفع الاعتداء وتحرير الأرض وإنقاذ المسلمين ثم إذا لم تفعل شيئًا تعجبت وقلت: أين الله مما يحدث؟!

إن في قصة بني إسرائيل في سورة المائدة توضيح جلي لهذا المعنى، إذ إن بني إسرائيل كانوا أول من مر بهاتين المرحلتين بشكل واضح، بنو إسرائيل اتبعوا نبي الله موسى بمصر وتعرضوا لبلاء فرعون وتعذيبه الشديد ولم يؤمروا إلا بالصبر على البلاء والاستعانة بالله وانتظار إهلاك الله تعالى لفرعون وقومه.

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)

قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ سورة الأعراف.

فلما أنجاهم الله من فرعون وقومه وأراهم في إهلاكه آية عظيمة أمرهم لأول مرة بجهاد القوم الجبارين لدخول الأرض المقدسة ﴿ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)** ﴾ سورة المائدة. أرادوا أن تكون هذه المرة مثل الأولى، يهلك الله الجبارين أو يخرجهم ثم يدخلون بلا تعب، ولكن الوضع قد اختلف؛ لم يكن في المرة الأولى دور مطلوب منهم غير الصبر، أما الآن فلا، فهناك دور مطلوب وامتحان قائم وأمر إلهي لا يعتذر عنه، لم يكن الصبر في المرة الأولى بسبب فرق القدرات بينهم وبين فرعون وبالتالي ليس لهم أن يحتجوا بفرق القدرات في رفض الأمر الثاني.

فالطاعة في المرة الأولى أتت بالفوز والنصر على فرعون، والطاعة في المرة الثانية هي السبيل الوحيد للفوز والنصر

على الجبارين ﴿ **قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)**﴾ سورة المائدة.

ولكن بني إسرائيل أبوا إلا المعصية والتكاسل وطلب النصر الجاهز ﴿ **قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)** ﴾ فشكاهم نبي الله موسى إلى ربه، ويا خسارة من يشكوه نبيه إلى ربه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)** ﴾

فما النتيجة؟

هلك الجبارون كما هلك فرعون؟ حررت المدينة المقدسة بجنود من السماء كي يدخلها بنو إسرائيل دون تعب؟ لا، النتيجة ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)** ﴾

فليتأخر النصر ويمتد عهد الجبارين أربعين سنة أخرى وليعاقب المقصر ويعيش في التيه حتى يستبدل ويأتي جيل غيره يتحمل المسئولية وينفذ الأمر الذي لم ينفذه آباؤه وربما أجداده.

أربعون سنة ليست في عمر الزمان شيئًا ولكنها كفيلة

بزوال جيل وحرمانه من رؤية النصر والمشاركة في المجد. والأهم من كل ذلك تحصيل الأجر ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)** ﴾ سورة المائدة.

إن المعصية والتخاذل يدخلان العبد التيه، ولا يخرج منه إلا بالعدول عن أسباب الدخول فيه، ولم يخرج بنو إسرائيل من التيه إلا بجيل نفذ الأمر الأول وجاهد لدخول الأرض المقدسة، وقد كان هذا سبب حرصي على التركيز على مناقشة مشكلات وعيوب وأخطاء انتشرت في زماننا وكان لها دور كبير- حسب اعتقادي - فيما وصلنا إليه ، لا أملك وصفة كاملة مفصلة للخروج من التيه خطوة خطوة ، ولكني مؤمن أننا على الأقل نحتاج للتخلص من أسباب الدخول كأول خطوة للخروج منه ، وأن التأمل في آيات القرآن الكريم ومعانيه هو روح هذه الخطوة وبوصلتها التي توجهها للطريق السليم ، وهذا ما أحاول المساهمة فيه من خلال هذا الكتاب.

الوقفة الثالثة: من دروس القصة

من دروس القصة:

أن الابتلاء أحيانًا يبدأ بعد هلاك العدو، بل إن الابتلاء لا ينتهي ما دمت تمشي على الأرض، ونتعلم منها أيضًا أن ابتلاء النعمة قد يكون أشد من ابتلاء الشدة

﴿ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ سورة الأعراف.

إن من العبارات المنتشرة بين الناس وكأنها آية أو حديث: (إن الذي لم يتنازل في الشدة يستحيل أن يتنازل في الرخاء) وهي جملة باطلة تماما؛ إذ إنه لا علاقة بين الثبات في الشدة والثبات في الرخاء وإلا فلمَ كان الفصل دومًا بين الابتلائين؟

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ سورة الأنبياء.

وفي صحيح البخاري قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–:(فواللَّهِ ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكن أخشَى عليكم أن تُبسَطَ عليكمُ الدُّنْيا، كما بُسِطَتْ علَى مَن كان قبلكم، فَتَنافَسوها

كما تَنافَسوها، وتُلْهيَكُم كما ألْهَتْهُمْ).

إن هذا الاحتجاج هو نفسه من الفتنة والبلاء وبسببه تأخرت الأمة كثيرًا ووضعت الثقة في أناس ليسوا أهلاً لها لمجرد أن لهم تاريخ من النضال والتضحية، هذا بفرض صحته.

من دروس القصة:

إبطال حالة "الدروشة" التي كان ولا يزال لها دور في تخبط الأمة وأبنائها، وأن كون الربيع العربي مثلا قد بدأ جله دون ترتيب يذكر وكون بدايته كانت تيسير من الله أنه بالضرورة سيكمل وينتهي إلى خير، وهذه كانت حجة الكثيرين الذين لم يفعلوا شيئًا يساعد بحق في استثمار خطوة البداية في النهوض بالأمة وحل مشكلاتها، بل ساعدوا بشدة في إفساد نتائجها، وكلما حدثتهم قالوا: (إن الربيع العربي بدأه الله لا البشر وطالما أن الله قد بدأه فسينتهي إلى خير ولا بد)، سمعتها كثيرًا جدًّا، ولكن ما خفي عنهم أن فرعون الذي أهلكه الله وليس البشر، وأن عبور بني إسرائيل للبحر كان بأمر الله وليس فيه شيء من أسباب البشر.

فهل ينبغي بالضرورة أن ينتهي أمرهم إلى خير؟ بل انتهى إلى تشتت وتيه ولعن لكثير منهم، إن الله خاطب أنبياءه أنفسهم وهم خير

الخلق ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ سورة الزمر، فكيف يأمن المرء؟

ومن أين يأتي بهذا الهدوء النفسي الذي يسميه كذبًا إيمانًا وثقة بالله؟

إن الله يعطينا الفرص لينظر كيف نعمل؟ فإذا بنا نحتج بالفرص على ترك العمل وبالتالي تضيع الفرص وتتحول لنقمة، وهل بعد ضياع الفرصة نفيق؟ لا نعود للتواكل الأول ونتساءل نفس الأسئلة وندعو نفس الدعوات وهلم جرا.

من دروس القصة:

أنه كما أن تفضيل بني إسرائيل كان مشروطا، فلما خالفوا الشروط خسروا هذا الفضل، فإن خيرية أمة محمد - صلى الله عليه وسلم- أيضًا مشروطة، فالفخر بثناء الله عليها في كتابه وثناء رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ونحن لا نلتزم أمر الله ولا أمر رسوله يشبه كثيرًا سلوك بني إسرائيل، وأخشى إذا لزمنا ذلك أن نلقى مصيرًا كمصيرهم ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)** ﴾ سورة آل عمران

الفصل الخامس

ارفع رأسك فوق

الوقفة الأولى: عن أهمية الدعوة

الدعوة إلى الله هي وظيفة الأنبياء ومن سار على نهجهم، وهي أشرف دور يقوم به بالمسلم ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ سورة يوسف.

فمن اتباع النبي – صلى الله عليه وسلم– السير في سبيل الدعوة ولكن على بصيرة، وهي من أعظم السبل التي تسهم في إصلاح الواقع أولا، ثم في رفع الدرجات في جنات عدن يوم القيامة، ومن أعظم أبواب النجاة من العقاب في الدنيا والآخرة **﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾ سورة هود.**

وهي التي ارتبطت بها خيرية هذه الأمة، تثبت الخيرية مع وجودها وتنتفي مع ضعفها وتراجعها ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)** ﴾ **سورة آل عمران.**

وقد سرد القرآن قصص الأنبياء ونقاشاتهم مع أقوامهم مرارا؛ لتكون مدرسة لكل الموحدين إلى يوم القيامة؛ تعلمهم أولا أهمية الدعوة ووجوبها، وتعلمهم أساليبها ومتطلباتها وتعلمهم كيف يناظرون المدعو؟ وكيف يديرون الحوار معه؟

والدعوة ليست حكرا على فئة معينة، بل التناصح مطلوب من كل مسلم قل علمه أو كثر «بشرط» أن يكون على علم بالنقطة التي يتكلم فيها ولا يتجاوز في كلامه إلى ما لا يعلمه ويتقنه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-:(بلغوا عني ولو آيةً) **رواه البخاري** على عكس الفتوى فلا يكفي فيها تلك المعرفة البسيطة وتحتاج إلى تفقه وتخصص ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)** ﴾ **سورة التوبة.**

ومشكلات الدعوة في عصرنا متعددة ومتنوعة: فما بين متحدث بغير علم كاف فيما يتناوله، وما بين من يسكت رغم قوته العلمية واستعداده لذلك، وما بين صاحب حق لا يجيد توصيله، وما بين صاحب باطل يجيد تسويقه، وما بين صاحب حق –وربما كان صاحب أسلوب رائع– إلا أنه وقع في داء عضال : يضيع كل هذه الميزات ويؤثر مع الوقت في دعوته ويضر بعلمه وأسلوبه، فيفقد تدريجيا الحق الذي معه، ويفقد أسلوبه رونقه الذي يحتاجه الكثيرون ولا يتمسك بمتابعته واتباعه إلا أصحاب الأهواء أو أصحاب الهمم الضعيفة.

الوقفة الثانية: الداء وأسبابه

لا يختلف اثنان أن المسلمين يعيشون واقعا صعبا منذ عقود: ما بين ابتعاد عن الدين وأخلاقه، وخروج من ركاب الدول المتحضرة المتقدمة، وغرق في الديون والاحتياج لغيرهم في أبسط متطلبات الحياة، ووقوع تحت الاحتلال والظلم مما يجعل المسلم "المهتم" بأمته يعيش دوما في كآبة بالغة وحزن بالغ!

والأصل أن كل هذه المشكلات الجسيمة تدفع المسلم للتفكير والعمل الدائم على الإسهام –ولو بدور بسيط– في تغيير

هذا الواقع وإصلاحه.

الأصل أن المسلم يعلم أن السبب الأول في وصولنا لهذه الحالة هو الابتعاد عن الفهم "الشامل" للدين وشرائعه التي تجعل من علوم الحياة والتكنولوجيا فروض كفاية تأثم الأمة كلها إن لم تخرج من أبنائها من يقوم بها، فروضًا تمامًا كفروض العبادات المحضة.

الأصل أن يدرك المسلم - لا سيما الداعية - أن أهم السبل إلى ذلك الحرص على إعادة الناس إلى أصول هذا الدين - كما هو - وتوسيع مداركهم في فهمه والالتزام به.

ينبغي أن يدرك الداعية السائر على نهج النبي - صلى الله عليه وسلم- على بصيرة أن دوره لن يتجاوز بأي حال دور النبي - صلى الله عليه وسلم- والأنبياء من قبله ألا وهو: التبليغ الواضح البيّن بالعبارة المناسبة للمدعو والموقف دون أن يمس أصل المادة التي يوصلها للناس ولا أن يقترب من أحد أحكامها وأدلتها ﴿ **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (٩٢)** ﴾ سورة المائدة ﴿ **لَّيْسَ عَلَيْكَ**

هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾ سورة البقرة.

إن فهم الداعية لهذا المعنى جيدا وهو أن البلاغ المبين هو أقصى مسئولياته وأن تحقيق الهداية ليس في يده ولا في مقدوره يعد أهم وسائل الوقاية من هذا المرض وهو الهزيمة النفسية المؤدية إلى التحريف والتبديل في المادة الشرعية التي يوصلها للناس.

يطغى على المرء حبه لتحقيق الهداية وإكثار عدد المتبعين للحق فيتجنب ذكر الحق نفسه أو يبدل في مفاهيمه خشية نفورهم الناتج عن أهوائهم فيدغدغ الداعية أهواءهم ولا يفرق بين الأسلوب المؤدب والحكمة في تبليغ الحق وبين تحريف الحق، فيظن أنه بتبديله وتغييره وتنازله يلتزم الحكمة والحكمة بريئة من فعله هذا.

والأمر يظهر سواء في دعوة غير المسلمين للإسلام، ويظهر -أيضا- في دعوة المسلمين أنفسهم ونصحهم بالالتزام بأحكام دينهم؛ يتعامل الداعية مع الدين الذي يبلغه على أنه متهم يسعى

لتبرئته أمام من يدعوه، مع أن الحقيقة أن كل من يحيد عن الإسلام هو المتهم المقصر ودور الداعية أن يبين له حجم احتياجه هو إلى الإسلام إن كان غير مسلم، وحجم احتياجه لفهم الإسلام فهما صحيحا والعودة لأحكامه إذا كان مسلمًا مقصرًا كي يصلح من نفسه ويكيّف حياته وأفكاره وعاداته وسلوكه وفقا لأحكام دينه الحنيف، لا أن يظن أن ضعفنا معناه أن الإسلام هو من يحتاج الناس وأن على الإسلام أن يكيّف نفسه وفق ما يريدونه هم، فيصبح -من جديد -العدد هو المهم وهو الغاية لا الوسيلة، ويصبح الإسلام هو المتهم والمدعوين قضاة، بخلاف الحقيقة وهي أن الإسلام هو القاضي وأن من يخالفه هو المتهم المحتاج للنصح والملوم على مخالفته وبعده عنه.

إن الهزيمة النفسية للمسلم – وكل مسلم داعية – هي التي تجعلنا نسمع عن اشتراكية الإسلام إذا غلب على الناس الحديث عن الاشتراكية، وهي التي تجعلنا نسمع عن رأسمالية الإسلام إذا ما غلب على الناس الحديث عن الرأسمالية، وعن ليبرالية الإسلام إذا علا صوت الليبراليين وعن ديموقراطية الإسلام إذا غلب الحديث عن الديموقراطية وهلم جرا!!

حتى إنني أخشى أنه لو خرج أحدهم يتحدث عن الرأسماكية)

كما حدث في مسرحية تخاريف (لقام إليه أحدهم وتحدث عن رأسماكية الإسلام!!

وهذا الأسلوب -الذي يظن أصحابه أنه دعوة للإسلام- هو في الحقيقة طعن في الإسلام إذ إنك إذا قلت أن كل هذه الأنظمة تمثل الإسلام تماما فهذا يعني أنه دين ليس له خصائص ولا قواعد ولا أحكام محددة ويتغير بحسب من بيده السلطة ومن صوته أعلى.

أن تسمع عن الاشتراكية – مثلا- فتبحث عن التشابهات التي بينها وبين الإسلام وتذيعها وتخفي أو تتأوّل الخلافات التي بينها وبين الإسلام، ثم تطالب بتطبيق الإسلام لأنه يشبه الاشتراكية فهذه إهانة للدين لا تبليغ له ولا عمل على مصلحته. وإن عُمل به من هذا الوجه فإنه لم يطبق؛ إنما الذي طبق هو النظام الآخر ولكن في ثياب إسلامية كاذبة، فإن الحق أن يقارن كل منهج وكل نظام بالإسلام ليحكم الإسلام على ما فيه من صواب وما فيه من خطأ، فإن كان صاحبه والداعي له- فعلاً- يبتغي الحق فإنه لن يملك إلا قول)سمعنا وأطعنا (إذا تبين له – على يدي الداعية الصادق – انحراف ما يقوله عن الإسلام، وإذا كان يبتغي إرضاء هواه فإنه لن يحيد عما قرر اتباعه مهما تنازل الداعية وبدل وغيّر، بل قد يكون تقلبه هذا فتنة لهذا المدعو وتثبيتا له على خطئه.

الوقفة الثالثة: مدرسة الأنبياء

﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)** ﴾ سورة الأنعام.

المتأمل في قصص الأنبياء في القرآن الكريم وفي نقاشاتهم مع أقوامهم يدرك بوضوح ذلك الخط الفاصل الواضح بين اللين والحكمة في التبليغ وبين الحفاظ على الثوابت والاعتزاز بدعوتهم مهما انتقصها الآخرون أو انتقصوهم بسببها.

انظر إلى تلك الرقة في النداء وهذا الحنو في الخطاب والحرص على مصلحة المدعوين ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)** ﴾ سورة الأعراف.

﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)** ﴾ سورة هود.

﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ**

إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ سورة هود.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ سورة الكهف.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ سورة مريم.

وانظر إلى تعدد الوسائل والحجج وأساليب الطرح وتهيئة القلوب وتذكيرها بما يدفعها للإيمان واحترام الدليل:

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ سورة نوح.

﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ سورة الأعراف.

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ سورة النمل.

والأمثلة في ذلك لا تنحصر، ولكن كل ذلك شيء، والحفاظ على عزة الدعوة والدين شيء آخر. اللين في التبليغ شيء، والتراجع أمام هجوم الخصوم أو الاهتزاز أمامهم شيء آخر.

لم يدفع الحرص والرقة الأنبياء إلى الاهتزاز أو الرد بردود عاجزة ضعيفة أمام هجوم قومهم وإساءتهم وكفرهم، بل كانوا أقوياء معتزين برسالتهم بالضبط كما كانوا رحماء مشفقين على أقوامهم

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) ﴾ سورة الأعراف

﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ سورة هود

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) ﴾ سورة هود

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ سورة يونس

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ سورة يوسف

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ سورة الأعراف. والأمثلة هنا أيضًا لا تنحصر.

الوقفة الرابعة: ودوا لو تدهن فيدهنون

إن خصوم أي دعوة يتمنون -دوما- اختفاءها بالكلية، ولكنهم إذا فشلوا في ذلك فلن يتوقفوا وسيحرصون على تحقيق ولو أدنى المكاسب.

وأكبر مثال لذلك إبليس نفسه، فإن فشل في إخراج الإنسان من الإيمان أوقعه في الكبائر، وإن فشل في إيقاعه في الكبائر أوقعه في الصغائر، وإن فشل أمام صلابة خشية المؤمن وكثرة توبته وإنابته على الأقل عمل على الحد من طاعاته، وكذلك أولياؤه، إن لم يستطع القضاء على دعوتك عمل على تمييعها وتحييد النقاط التي تضر مصلحته فيها والإبقاء على الصورة التي لا تضره في شيء بل وربما تنفعه.

وهذا ما حدث مع النبي - صلى الله عليه وسلم- بعدما كان الرفض كاملا لدينه ودعوته فاوضوه على ما دون ذلك، كتبادل العبادة عام وعام، وطرد فقراء المؤمنين ليحافظوا على سلطاتهم كما حدث مع الأنبياء من قبله.

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ سورة الأنعام **﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾** سورة هود.

فاوضوه على الكف عن الحديث عن بطلان دينهم وآلهتهم

مقابل أن يسكتوا عنه – تفريغ الدعوة من مضمونها – وأبى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ذلك ونزل فيها قوله تعالى:

﴿ **فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)** ﴾ سورة القلم.

كانوا مستعدين لاتخاذ النبي – صلى الله عليه وسلم- صاحبًا وخليلاً في لحظة بعدما كان ألد أعدائهم ﴿ **وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)** ﴾ سورة الإسراء.

ولم يفعل النبي – صلى الله عليه وسلم- كي يتقرب منهم ويتمكن ثم يعود للجهر بالحق بعدما تصير له شوكة، فالحق هو الحق نتناقش لتبليغه بأحسن وأوضح صورة ممكنة، ولكن لا تفاوض فيه.

فلا يظن السائر في طريق الدعوة أن بقاء المسمى العام والخطوط العامة للدعوة هو الغاية، فيتنازل عن أشياء يراها هو تفاصيل ويبدل ويغير ويظن أن ذلك في مصلحة دعوته، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم- نفسه لم يكن مفوضا ليغير ويبدل ويختار ما يتكلم فيه وما يسكت عنه فهل تكون أنت مخيرا؟!

﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء**

نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ سورة يونس.

فلا ينبغي لمسلم الوقوع في هذا الفخ. وعلى المسلم الاحتفاظ واحترام كل تفاصيل دينه وأحكامه سواء رضي الخصم بذلك أو لم يرض!!

وأصدقك القول:

إن هذا الثبات عنصر أساسي في تبليغ الدين، فإن المخالف يحترم الثابت على مبادئه وإن لم تعجبه المبادئ نفسها أكثر من احترامه للمتميع الذي يتخذ رضاه هدفا ويقدم له ما يعجبه ويريده، ويظل يشك فيه دائما ويؤمن أن دعوته هذه غطاء لشيء آخر.

وقد كانت لي تجربة مع أناس من النوع المذكور يتنازلون ويميعون ويقدمون للمدعو بأيديهم أشياء هم أنفسهم يؤمنون بحرمتها كخطوة على الطريق – بزعمهم – فكادوا يفتنونني وملأ الشك فيهم قلبي وكانت بداية للابتعاد عنهم لا للاقتراب منهم كما كانوا يستهدفون، ولكنهم اتخذوا عدد التابعين غاية لا تبليغ الحق، رغم أن من الأنبياء من سيأتي يوم القيامة وليس معه أحد كما جاء في الحديث، فهل يعيبه ذلك؟!

حاولوا إرضاء الناس بسخط الله فسخط عليهم الناس، ومن أتبعهم إنما أتبع هواه في صورتهم ولو جهروا غدا بالحق الذي يعتقدونه لفارقهم جمهورهم صاحب الهوى على الفور، وإذا ما حدثتهم عن خطأ فعلهم حدثوك عن نواياهم الصالحة، والنية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد.

الوقفة الخامسة: الثبات منحة إلهية

إن الثبات على الحق في كل الأزمنة والأمكنة يحتاج إلى إخلاص واستعانة بالله؛ فكلنا ضعفاء أمام فتن الشر والخير على سواء، فلا تظن أن ثباتك من عند نفسك، أو أنك قادر وحدك على معايشة الفتن والابتلاءات دون أن تسقط، فإن ظننت ذلك فاعلم أن ذلك أول خطوات السقوط، لتسأل الله دوما أن يهديك ويبصرك ويوفقك ويثبتك، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم– لم يكن ليثبت إلا بعون الله وتوفيقه فإياك أن تظن أنك في غنى عن ذلك العون والتثبيت!

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ سورة الإسراء.

الفصل السادس

التقدير والتقديس والعبد المأمور

سنة الله في الخلق أن تتفاوت درجاتهم ومكاناتهم وأدوارهم، وأن يكون هناك قادة ورموز وأن يكون هناك عوام وأتباع، فلا يمكن أن يكون الجميع قادة، ولا يمكن أن يكون الجميع عوام، ولكن تظل العلاقة بين الرمز والتابع هي أحد المعضلات الكبرى. وسوء فهمها هو أحد مظاهر مشكلات واقعنا المضطرب.

الوقفة الأولى: التقديـر

الرمز والقائد في أي مجال هو رجل أو مجموعة تميزت بصفات خاصة زائدة عن عموم الناس في هذا المجال.

كما جاء مثلا في ذكر طالوت ومنحه القيادة والملك ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي**

مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾ سورة البقرة.

وكما جاء في ذكر إمكانيات نبي الله يوسف التي أهلته لتولي خزائن مصر ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ سورة يوسف.

وكما جاء في ذكر فضل من يتميز بالعلم وجعله مرجعًا للناس ومحلاً لأسئلتهم ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧)** ﴾ سورة الأنبياء.

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : (من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا، سلك اللهُ به طريقًا من طرُقِ الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضًا بما يصنع، وإنَّ العالمَ لَيستغفرُ له مَن في السمواتِ، ومن في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ، لم يُوَرِّثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنما وَرّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ (صححه الألباني في صحيح الجامع، وغير ذلك.

وهذا التنوع وهذه الدرجات ضرورة في قيام المجتمع؛ فليس من الممكن أن يكون كل المجتمع علماء فقهاء متفرغين، كما أنه

ليس من الممكن أن يكون كل المجتمع في أعلى درجات الغنى، أو كله أطباء أو كله محاسبون إلى آخره.

وكما أنه في الشركة الصغيرة لا يمكن أن يكون الجميع مديرين وإلا سيغرق المكان لاختلاف رؤيتهم وتضارب قراراتهم فكذلك على كل المستويات يكون هناك حاجة لذلك الرمز التي تجعله إمكانياته قادرًا على قيادة من تحته أوتوجيههم؛ إذ إن القيادة المذكورة ليس المقصود بها فقط أن يكون حاكمًا أو أميرًا أو ما شابه، بل قد تكون قيادة رمزية بأن يكون لكلمته شأن مؤثر كالعلماء والحكماء وأصحاب العقل الرزين والفراسة والرؤية العميقة والتاريخ المشرف.

هذا التنوع ضروري ولا ينبغي أن نهدمه ولا أن يختفي من حياتنا كل تقدير لمن يستحقون التقدير فنصبح مجتمعا عشوائيا ليس له أوتاد تقويه ضد رياح الأزمات وتقلبات الأحوال؛ فقد علمنا القرآن الكريم هذا التقدير كما جاء عاليا في فضل العلماء مثلا، وكما جاء في أهمية احترام أهل التخصص ورؤيتهم واستنباطهم ﴿ **وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ**

الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾ سورة النساء.

وكما تعلمنا من القرآن الكريم تقدير بذل الرجال وتاريخهم إذ إن ربنا –جل في علاه– أثنى عليه وميز بينهم بمقدار بذلهم ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)** ﴾ سورة الحديد.

هذا التقدير أساس وأصل مهم،،،ولكن.......

الوقفة الثانية: التقديـس

الكثير من الناس –وللأسف– لا يعرفون الوسط، فكما أن هناك من لا يعرف لأحد فضلاً ويميل إلى الفوضوية المطلقة ويظن في نفسه قدرته على معرفة كل شيء وعمل أي شيء دون الرجوع لأحد. وأمثال هذا نرى منه العجائب والتخبط والتناقض الرهيب يوجد أيضًا من يجعلون من رموزهم أصنامًا، ويخرجونهم من دائرة البشر الذي يصيب ويخطئ. والمعرض لتقلب القلب والافتتان إلى دائرة النبوة والعصمة المطلقة – وإن لم يقولوا ذلك بألسنتهم – هم يقولون لا هم بشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم،

ولكن انظر إلى واقعهم لعقود لن تجده ذكر ما عليهم قط أو أقر به، ولكن إما دافع عنه وبرر أو صمت صمت القبور، فالعبرة بالفعل لا بالقول، والفيصل بين التقدير والتقديس هو كون الطاعة والاتباع يرتبطان فقط بصحة الموقف شرعا أم أنهما قد يمتدان أيضًا في المواقف التي تخالف الشرع.

وقد وصف القرآن الكريم هذا الاتباع بأنه عبادة واتخاذ المتبوع ربا والعياذ بالله، قال تعالى ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ **سورة التوبة.**

وعندما قرأها النبي – صلى الله عليه وسلم– وسمعه عدي بن حاتم الطائي والذي كان نصرانيا وأسلم فقال (إنهم لم يعبدوهم) – يعني الأحبار والرهبان – فقال النبي – صلى الله عليه وسلم–: (بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم).

فقد تعجب عدي بن حاتم من الوصف؛ لأن مفهوم العبادة مقتصر في ذهنه على السجود والركوع، ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم– علمه وعلمنا من بعده: أن للعبادة لوازم وأن من يتبع

أحدا فيما يخالف دين الله تحريما وإباحة هو نوع من العبادة.

وللأسف هذا النوع موجود بشدة: اتباع مطلق للرمز والشيخ في الأمر وعكسه، يقول على الشيء بالأمس حراما فيتبعوه ويدعون الناس لاتباعه، ويقول على نفس الشيء اليوم حلالا – دون إعلان التراجع عن كلام الأمس وذكر حيثياته – فيتبعوه أيضًا ويدعون الناس لاتباعه مقتنعين أنه صواب في الموقفين!

فهل لإثبات العصمة دليلاً عمليًّا غير هذا؟! راجع قصة تحويل القبلة في الفصل الأول!

وقد حرص الأئمة الأربعة دوما على التحذير من هذه المشكلة، فبينوا لتلاميذهم أن قولهم إذا خالف كتاب الله أو سُنَّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فليضرب به عرض الحائط، وأن قولهم ليس هو الحق ذاته وإنما يستمد قوته من مدى اعتماده على مصادر الحق : قرآنًا وسنة، ولكن للأسف وقع بعضهم من التعصب لمذاهبهم ما وقع إلى حد تعدد المحاريب في المسجد الواحد، وتشكيك بعض الغلاة في صحة زواج المالكية من الحنبلي وما شابه، وقد صاغ أحد الفضلاء هذا المعنى وأقوال الأئمة في أرجوزة لطيفة بعنوان)إذا صح الحديث فهو مذهبي(

قال فيها:

وقول أعلام الهدى لا يعمل ... بقولنا بدون نص يقبل
فيه دليل الأخذ بالحديث ... وذاك في القديم والحديث
قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذٌ بأقوالي حتى تعرضَا ... على الحديث والكتاب المرتضى
ومالك إمام دار الهجرة ... قال وقد أشار نحو الحجرة
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول
والشافعي قال إن رأيتموا ... قولي مخالفا لما رويتموا
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقولي المخالف الأخبارا
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ... ما قلته بل أصل ذاك فاطلبوا
فانظر ما قالت الهداة الأربعة ... واعمل بها فإن فيها منفعة
لقمعها لكل ذي تعصب ... والمنصفون يكتفون بالنبي

وليس تقديس العالم الشرعي هو الصورة الوحيدة لهذه المشكلة، وإنما أسهبت فيها؛لخطورتها وشدة تأثيرها، ولكن صورة المشكلة متعددة كتقديس كل من شارك في حدث معين

والتبرير له مهما فعل مثل من شارك في حرب أكتوبر أو الجهاد ضد الاحتلال أو ثورات الربيع العربي وما شابه، وتقديس مؤسسات مطلقا كمؤسسات القضاء والجيش وغيرها وكأنها ليست مكونة من مجموعة من البشر يصيبون ويخطئون.

بل إن هذا الغلو -في حد ذاته- كفيل بإفسادهم إذا كانوا في الحقيقة مصلحين، فإن المرء إذا عاش عقودا يقول ويعمل ولا يصوبه أحد ولا يناصحه فسد قلبه وحاد عن الطريق.

الوقفة الثالثة: العبد المأمور

لقد كان تركيزي في النقطة السابقة على الطاعة العمياء النابعة عن الحب والاحترام الزائد والتقدير الذي تحول إلى تقديس من غير أن يشعر صاحبه، إلا أن الطاعة العمياء والتبعية المطلقة للبشر لا تكون دائما بدافع الحب والاحترام واعتقاد الصواب الدائم فيما يقوله المتبوع.

تتحدث معه وتنصحه، تنبهه إلى خطأ ما يفعل وخطورته، تذكر له الأدلة الشرعية والعقلية والواقعية على ما تقول فتفاجأ بأنه يقرك على كل كلمة وحرف بل ربما أضاف إليك حججا وأدلة على صحة كلامك لم تكن تعرفها من قبل!!!

إذن فلماذا تفعل ما تفعل؟!

يقول:(عبد المأمور) وإذا كان وَرِعًا في اختيار ألفاظه قال (العبد المأمور)!!!

يؤمن تماما أنه غير مسئول أو محاسب على قيامه بالباطل ومحاربته للحق الذي يوقن فيه؛ لأنه عبد المأمور، يؤمن – أو هكذا يدعي– أن أفعاله المشينة لا تمر على صحيفة سيئاته طرفة عين بل تسجل مباشرة في صحيفة سيده الآمر وأنه ليس له من هذا كله إلا راتبه أو مصلحته في الدنيا ويوم القيامة له الحسنى.

تبدأ هذه الظاهرة في القلب بشعور المستضعف بالهزيمة النفسية التي تجعله يظن أن القوي على صواب دائما فيتبعه في كل شيء، أو يعلم المستضعف بطلان منهج المتبوع ولكن خشية الله لم تغلب في قلبه على خشية السادة والكبراء، والرجاء فيما عند الله لم يغلب في قلبه على رجاء ما عند السادة فيسير على هواهم.

وتبدأ الظاهرة في التطبيق بالمتابعة والطاعة المطلقة في مخالفات صغار وتمر بالطاعة في مخالفات كبار وقد تنتهي والعياذ بالله باتباع السادة والكبراء في أمور تخالف العقيدة وتخرج من الدين، ظانين أن هذه الحجة الواهية مانعتهم من

الله ولكن ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)** ﴾ سورة الأحزاب .

يظنون أن هذا السيد المطاع ذا السلطان والهيبة والكلمة النافذة سيأتي يوم القيامة ليدافع عن أتباعه ويذب عنهم أو حتى يحمل عنهم خطاياهم ولكن ﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)** ﴾ سورة سبأ.

فيتجرأ التابع أخيرا من هول المفاجأة وشدة العذاب ويتحدث ويكشف ما كان يدور ولكن بعد فوات الأوان ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)** ﴾ سورة سبأ.

إن الآمر يحمل أوزارا مع أوزاره لأنه حرض على الباطل ولكن لا ينقص ذلك من أوزار المأمور شيئًا، ﴿ **لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ**

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ سورة النحل

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)** ﴾ سورة العنكبوت.

فما الذي سينفعك أيها المأمور من زيادة سيئات الآمر طالما أنك ستحمل وزرك غير منقوص؟!

﴿ **وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)** ﴾ سورة الزخرف

﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)** ﴾ سورة البقرة.

إن قضية (عبد المأمور) قد وردت في كتاب الله كثيرًا، وتكرر التحذير منها مرارا، وجاءت السنة بذلك أنه لا طاعة لأحد إلا في المعروف حتى في المواضع التي أوجب الله فيها الطاعة على

المسلم كالابن مع والديه والزوجة مع زوجها والرعية مع الراعي، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) **متفق عليه.**

كما أن هذا المعنى موجود في الآية التي يستدل بها الكثيرون على خلاف مدلولها ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)** ﴾ **سورة النساء.**

فالآية لم تجعل لأولي الأمر (وهم العلماء والأمراء المصلحون) طاعة مستقلة، أطيعوا الله، أطيعوا الرسول، ولم يأت الأمر أطيعوا أولي الأمر وإنما عطفت على طاعة الله وطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم- لأنها مشروطة بعدم مخالفة القرآن والسنة.

وعن علي بن أبي طالب قال: (بعث النبيُّ - صلى الله عليه وسلم- سَرِيَّةً وأمَّر عليهِم رجلًا من الأنصارِ وأمَرهم أن يُطيعوه، فغَضِب عليهِم وقال: أليسَ قدْ أمَر النبيُّ - صلى الله عليه وسلم-

أن تُطيعوني؟ قالوا: بلَى قال: قد عزَمْتُ عليكم لمَا جمعْتُم حَطَبًا وأوقَدْتُم نارًا ثم دخلْتُم فيها. فجمَعوا حَطَبًا فأَوقَدوا نارًا؛ فلما هَمُّوا بالدُّخولِ فقاموا يَنظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ فقال بعضُهم: إنما تَبِعْنا النبيَّ - صلى الله عليه وسلم- فِرارًا من النارِ أفندخُلُها؟ فبينما هم كذلك إذا خمَدتِ النارُ وسكَن غضبُه فذُكِرَ للنبيِّ - صلى الله عليه وسلم- فقال: لو دخَلوها ما خرَجوا منها أبدًا، إنما الطاعةُ في المعروفِ) **رواه البخاري**.

وكما أن تبعية الحب الزائد والتقدير الواصل لمرحلة التقديس يفسد المتبوع ويثبته على أخطائه وباطله، فكذلك تبعية الخوف وتبعية (العبد المأمور)، فلا يمكن لظالم أن يظلم دون أدوات ولا يمكن أن يفيق وهو لا يلقى أي معارضة أو ممانعة فيما يفعل.

إنك تستدل بضعفك على تبعيتك هذه، وهو أيضًا بينه وبين نفسه -إن حانت له لحظة محاسبة وإفاقة- قد يستدل بك على صواب نفسه؛ إذ إنه يستحيل أن أكون مخطئًا وكل هؤلاء يطيعوني بهذا الارتياح والسلاسة!!

يقولون إن الكرسي يفسد حتى كرسي من يدير عشرات الأشخاص في مؤسسة صغيرة.

وفي الحقيقة أن المشكلة ليست في الكرسي ولكن في أتباع الكرسي المطيعين مطلقا لمن جلس عليه، فإن أحسن أحسنوا لا للإحسان ولكن لأن هذا هو الأمر، وإن أساء أساءوا لا عن خطأ في الفهم والقناعات ولكن فقط لأن هذا هو الأمر، فالتبعية العمياء سواء جاءت عن حب أو جاءت عن سلبية وخوف أثرها في حياتنا وواقعنا المضطرب أكبر مما يتصور..

لذا نهى القرآن الكريم عن الركون للظالمين أيًّا كانت أسبابه وجعل عاقبة من يركن إليهم بالمساعدة أو التأييد إلى النار ﴿ **وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (١١٣)** ﴾ سورة هود.

كما أن العقاب لم يفرق بين فرعون وحاشيته وبين الجنود رغم أنه قد يكون منهم من يتصرف من منطلق جنديته وطاعته للأوامر ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)** ﴾ سورة القصص. وللقارئ التأمل في أحوال الرموز وأتباعهم في خلال السنوات الماضية وكيف كان الواقع سيتغير إن وعوا جميعا هذه المعاني والتزموا بها.

الفَصْلُ السَّابِعُ

جريمة التفاؤل

هو عنصر أساسي في قدرتنا على البقاء، كما أنه عنصر أساسي في التغيير والإصلاح، فاليائس عاجز، ونفسه المنكسرة لن تعينه للعمل أبدا على التقدم للأمام، سواء كان هذا الأمر على المستوى الشخصي أو على مستوى الأمة، ولكنه رغم فضائل التفاؤل إلا أنه شأنه شأن غيره إذا استخدم في غير موضعه، وتم تطويعه سيؤدي لنتائج عكسية ولا بد.

الوقفة الأولى: اليأس من رحمة الله

اليأس من رحمة الله تعالى ذنب كبير، وصف في كتاب الله بأوصاف شديدة:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ سورة يوسف.

وفي حوار نبي الله إبراهيم مع الملائكة المرسلين بالبشرى

﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ (٥٦) ﴾ سورة الحجر.

فلا ينبغي لمسلم أن ييأس من رحمة ربه بأنه يكشف عنه غما أو ييسر له أمرا أو يغفر له ذنبا.

وقد كان الفرق الرئيسي بين العابد والعالم في قصة قاتل المائة أن الأول لم يفهم ولم يتعلم أن رحمة الله تسع كل شيء، وأن ذنب المرء يغفره الله مهما عظم إن عاد العبد وتاب. أما العالم فهو يدرك جيدًا بمعرفته عن ربه أنه لا يطرد عن بابه أحد صدق في اللجوء إليه

(كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فسأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على راهبٍ فأتاه فقال: إنَّه قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله. فكمَّل به مائةً. ثمَّ سأل عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ. فقال: إنَّه قتل مائةَ نفسٍ. فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم. ومن يحولُ بينه وبين التَّوبةِ؟ انطلق إلى أرضِ كذا وكذا. فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ فاعبُدِ اللهَ معهم ولا ترجِعْ إلى أرضِك فإنَّها أرضُ سوءٍ ... الحديث) رواه مسلم.

ومن حديث قاتل المائة نمسك طرف الخيط، أنه كما لا ينبغي

لأحد أن ييأس من رحمة الله وفضله، وأن اليأس من رحمته ظلم وذنب عظيم فإن الأمل في رحمة الله تعالى أيضًا له شروط وواجبات.

إن الراهب العابد قليل العلم أغلق باب الأمل في الله في وجه ذاك التائب، أما العالم فلم يغلقه، فمن يحول بين العبد وبين التوبة؟! ولكنه لم يتركه هكذا؛ بل وجهه لأسباب تحصيل هذه الرحمة وهذا الفضل الذي كان أوله أن يغادر أرض السوء التي يقتل فيها رجل مائة نفس، ولا يحاسبه أحد أو يأخذ على يديه ويذهب إلى أرض فيها أناس صالحون يعبد الله معهم. فلما أخذ الرجل بأسباب الرحمة وانطلق بالفعل إلى تلك الأرض ومات في الطريق غفر له ذنبه العظيم ودخل في عفو الله وكرمه.

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ سورة الأعراف.

فطلب الرحمة والأمل فيها ينبغي أن يصاحب بالعمل الصالح:

﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ سورة الإسراء.

ومربط الفرس هو "الوسيلة" والخلط بينها وبين أصل الأمر وهو الأمل في رحمة الله ونصره وتوفيقه.

الوقفة الثانية: الوسيلة

الوسائل أنواع:

الأول: وسيلة شرعية، وهي أي أمر شرعي أمرنا الله به وأوجب علينا التزامه. وهي وسيلة قطعا؛ للنجاة يوم القيامة وللرفعة في الدنيا. وقد يتأخر مع التزامها التوفيق والنصر لابتلاء قلوب المؤمنين من يصبر ومن يعبد الله على حرف أو قد يتأخر بسبب قصور في أوامر أخرى.

ولكنه -في جميع الأحوال- ينبغي أن يظل المسلم متمسكا به في كل حال سامعا مطيعا غير يائس من رحمة ربه آملا في فرجه وتوفيقه، وفي هذه يخاطب المسلم بآيات ترك القنوط واليأس، وبقوله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)** ﴾ **سورة يوسف.**

والنوع الثاني : أن تكون الوسيلة محرمة، أن يبتغي المرء التوفيق في الدنيا لنفسه أو حتى لدينه ولكن بمخالفة الشرع وأحكامه.

وأمثلة ذلك كثيرة منها ما ذكرناه في فصل (ارفع راسك فوق).

ومثل هذا يخاطب- لا بآيات ترك اليأس والقنوط- ولكن بآيات التوبة والحث عليها وعلى التزام الوسيلة الشرعية لتحقيق الهدف الشرعي.

ومخالفة النبي - صلى الله عليه وسلم- لن تكون أبدا وسيلة لتبليغ دعوته بحق ونصرة دينه ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)** ﴾ **سورة آل عمران.**

وأمثال هذا إن حقق له شيء من النجاح في الدنيا فهو دليل خطر عظيم؛ إذ إن الله يمتحنه ويفتنه بالخير ليرى هل يعود إلى صوابه أم تفتنه النتائج الزائفة ويستمر في حيوده. وياله من بلاء عظيم!!

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)** ﴾ **سورة الأنبياء.**

والنوع الثالث: أن تكون الوسيلة مباحة، لم يأت بها إيجاب أو استحباب ولم يأت بها كراهة أو تحريم. وفي مثل هذه الوسائل يقدر الأمر بقدره وتقيم فاعليتها على الأرض بحسب الأمر المستخدمة

فيه ومقارنة النتائج المرجوة بالنتائج المتحققة، وللمسلم أن يختار ما يتناسب منها مع واقعه وأن يترك هذه ويستعمل هذه حسب ما يتبين له مع سؤال الله تعالى أن يوفقه ويهديه مع ملازمة الاستخارة والاستشارة.

الوقفة الثالثة: تفاؤل.. أم غباء؟

كما بينا: أن الوسيلة الوحيدة التي ينبغي التزامها وعدم الحيود عنها مهما حدث والتزام الأمل في الله وعدم اليأس معها هي الوسيلة التي جاء بها الأمر في كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم-.

أما في زماننا فحدث خلط كبير، فعلى سبيل المثال:

يجرب إنسان وسيلة مباحة معينة سواء في أمر تعبدي كالدعوة إلى الله مثلاً أو حتى في شأن شخصي كالدراسة والعمل وما شابه ويثبت له مع الوقت أنها لم تكن الوسيلة المناسبة ويقرر تركها والعدول إلى غيرها فيفاجأ بأناس يحدثونه على ضرورة الأمل في الله وأن ما يفعله يخالف حسن الظن بالله وأن عليه أن يكرر المحاولة بنفس الوسيلة إلى أن يموت!! والرجل- في حقيقة الأمر- إنما يئس من الوسيلة المباحة لا من رحمة الله!!

سار في طريق فوجده مسدودا فما قيمة أن يعود لأوله ويسير

فيه زمنا آخر حتى يصل إلى الحائط ويعود وهكذا؟!

ما تعارض تغييره للطريق واستفادته من الخبرة السابقة مع الأمل في رحمة الله؟!

ما هذه السطحية والإرهاب الفكري؟!

والأعجب من ذلك أن هذا يحدث أحيانا مع من سلك طريقا فيه مخالفات ومحرمات وأكرمه الله بانسداد الطريق أمامه؛ كي يعود فإذا به يخاطب بنفس الخطاب ويطالب بنفس الطلب ويصف تفكيره في تغيير الوسيلة بأنه انهزامية ويأس وبيع للقضية وما شابه، إن من تعريفات الغباء أن تكرر نفس المقدمات وتتوقع نتائج مختلفة فكيف أصبح الغباء تفاؤلاً؟!

أصبح الغباء تفاؤلا؛ بسبب كبر الدالين على الوسيلة والداعين إليها من الاعتراف بخطئهم وباطلهم، فيسعى لتثبيت من أطاعوه فيها على ما هم فيه من وضع فاشل أو محرم كي لا يحدثوه عن خطئه وفشله.

يقع الرمز وأتباعه أو الحزب ومحبوه في فخ عميق بسبب سوء اختياراتهم وسطحية تفكيرهم وحيودهم عن الطريق في محنة عظيمة توقعها كل حكيم من قبل، وبدلا من أن يقفوا لمراجعة

حساباتهم وإصلاح مواقفهم وتنقية أفكارهم يبرز دعاتهم ومنظروهم؛ ليخطبوا في الناس أن هذه المحنة أول درجات الفرج؛ فأظلم لحظات الليل هي التي تسبق الفجر.

وفي الحقيقة أن الظلام الذي هم فيه ليس سببه ظلمة الليل التي تسبق الفجر؛ ولكنه ظلام التصاق وجوههم وأنوفهم بالحائط، ولو رجعوا خطوة للوراء لعلموا أن الطريق خطأ أصلا وأنهم يسيرون في اتجاه العشاء والمغرب لا في اتجاه الفجر.

تبدأ المحنة التي لطالما وعدهم هؤلاء الدعاة والرموز أنها لن تحدث بسبب حنكة القائمين عليهم!! تحدث في وقت استبشر فيه الجميع أنهم قد صعدوا أول درجات سلم العلو وهم في الحقيقة إنما نزلوا أول دركات سلم السقوط، يفاجأ الأتباع بما حدث فيصرخ فيها داعي السوء تعال ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** (١١٠) ﴾ سورة يوسف؛ ليثبتهم على نفس الوسيلة الخاطئة أو المحرمة ويدفعهم لاستمرار دفع وجوههم في الحائط مع انتظار الفجر، وتمر العقود ولا جديد!

إن هذا السلوك المتكرر ليس بالضرورة أن يكون مصاحبا بسوء

نية من هذا الصائح بل من الممكن أن يكون الصائح نفسه تائها ضائعا، فحالة الدروشة التي تسيطر على الكثير من أفراد الأمة والتي ناقشنا جانبا منها في فصل (على أبواب التيه) لا يقع فيها العوام والبسطاء فقط، بل إن بعض من يطلبون العلم دون بصيرة يقع فيها وينظر لها مستدلا بالآيات في غير موضعها فيضل نفسه ويضل غيره ويسهم بقوة في استمرار كبوة الأمة وطول زمان ضعفها.

إن التفرقة بين اليأس من رحمة الله واليأس من فاعلية الوسيلة أمر هام للغاية؛ فهجرة النبي - صلى الله عليه وسلم- مثلاً من مكة - بجانب كونها وحيًّا - لا يمكن بحال أن تعد يأسًا من رحمة الله، وبفكر هؤلاء كان على النبي - صلى الله عليه وسلم- أن يتمسك بالوسيلة - وهي البقاء في مكة - إلى الأبد ولا يتحرك لغيرها حتى بعدما تبين أن الأرض لم تعد صالحة للاستمرار.

كان عليه - بمنطقهم - أن يستمر في الطائف مهما حدث ولا يتحرك، كان على خالد بن الوليد رضي الله عنه - بمنطقهم - أن يستمر في قتال جيش مؤتة إلى أن تفنى جنوده ولا يمكر لحماية جنده.

كل هذا ونحن نتحدث في وسائل مباحة فيها سعة، فما بالك وهو يحث الناس على الثبات على وسائل مخالفة للشريعة

ويصف من يتخلى عنها أو يستبدلها بالساقط على الطريق واليائس من رحمة الله وما شابه؟!

ولا عجب أن من هؤلاء من تجده لا يثبت على الوسيلة الشرعية ويستبدلها بسهولة جدا بحجة عدم ملائمتها، لا عجب لأن فساد البوصلة يضرب كل الاتجاهات ولا يميز!!

من هنا قد يصبح التفاؤل في بعض الأحيان جريمة، عندما يخلط بين اليأس من الوسيلة واليأس من رحمة الله .يصبح التفاؤل جريمة إذا تحول أداة لتثبيت المسلمين على الفشل والضياع فضلا عن أن يصبح وسيلة لتثبيتهم على الحرام.

فينبغي أن ننتبه لذلك لنعلم مواطن الثبات وعدم التزحزح،ومواطن المرونة والمناورة. ولن يأتي ذلك إلا بتعلم الإسلام وأحكامه من كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– مع التزام فهم من شهد لهم بصواب الفهم وسلامة العقيدة ودخول الجنة ؛ حتى لا تستخدم الآيات والأحاديث في خلاف مرادها كما تبين.

الفصل الثامن

وقلوبهم شتى

عندما يذكر لنا القرآن الكريم صفات الأقوام الذين سبقونا فإن لذلك فائدتين فيما أعلم:

الأولى: الاستفادة والاعتبار من قصصهم وما حدث لهم.

والثانية: معرفة صفات المستمرين منهم في الوجود إلى الآن ومعرفة كيفية التعامل معهم وإتقاء شرورهم.

وللأسف!!

أغلبنا لا يستفيد من كلا الفائدتين شيئًا، فلا نعتبر من قصصهم ولا نتبع قواعد الإسلام في التعامل معهم، نتعامل مع آية سورة الحشر ﴿ **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** (١٤) ﴾ بسطحية شديدة جدًّا؛ لنسقطها فقط على ما نراه من يهود إسرائيل من توحد ضدنا ثم من نزاع داخلي إذا ما خلا بعضهم إلى بعض في انتخابات أو ما شابه!!

ولم ندرك لحظة أننا أيضًا نحاول أن نبدو جميعا رغم أن قلوبنا

شتى، مؤتمرات قمة عربية، مؤتمرات قمة إسلامية، مصافحات أمام الكاميرات وصرخات في الميادين (إيد واحدة) ولقاءات وحوارات وفي الواقع نحن -لا أقول داخل البلد الواحد بل أحيانًا داخل البيت الواحد -شيع وأحزاب بأسها بينها شديد، تنقلب على بعضها البعض في أمس أوقات الاحتياج للوحدة.

الوقفة الأولى: الوحدة الحقيقية

إن من أهم قواعد بناء الوحدة الناجحة الوضوح وضوح المعتقد ووضوح الأهداف ووضوح الرؤى والآراء بل والمشاعر.

الوحدة نتيجة منطقية لتلاقي تلك العناصر، ولا يمكن تطويع هذه العناصر لها إلا في حدود.

الوحدة هدف عظيم قبل أن يكون وسيلة لأهداف عظيمة تالية، هدف له وسائله التي ينبغي أن تنضبط وتجوّد كي يتحقق، ولكن -للأسف- الوحدة في زماننا وسيلة محضة يحرص البعض على القفز إليها مباشرة دون ضبط أسبابها؛ إما خضوعا للعواطف الجياشة الجميلة، وإما لأسباب وأغراض مصلحية سياسية إعلامية، فينحي التفاصيل جانبًا ويجعل هدفه فقط ذاك المانشيت الذي سيملأ الصحف وشريط الأخبار وسيؤثر على عدد الأوراق

المكدسة في صناديق الاقتراع لصالحه.

لذلك -وبسبب هذا القصور- تجدنا إذا ما دعا داعي الوحدة نرفض الحديث في التفاصيل والإفصاح عما في القلوب خشية فشل الوحدة المزعومة!!

كلما تحدث أحدهم بما في قلبه قالوا: ليس وقته (هذا كلام يفرق لا يجمع)

وفي الحقيقة أن ما يفعلونه هو ما يفرق ويمزق، يشيدون بناء بلا قواعد، رائع في مظهره مبهر للأبصار جاذب لأضواء الكاميرات ولكن سرعان ما يخر السقف من فوقهم لأن ما في القلب لا يزال في القلب، واختلاف الوجهة إلى حد التضاد لا يزال موجودا، فإذا ما تحدث الناصح ليستفيدوا من فشل التجربة في المرات التالية قالوا (ليس هذا وقت عتاب) فتأتي لحظة الاحتياج للوحدة من جديد فيقولون له مرة أخرى (ليس وقته، لا تفرقنا...) وهلم جرا إلى ما لا نهاية!! وقت الوضوح والمصارحة لا يأتي أبدا وبالتالي وقت الوحدة هو الآخر لا يدوم طويلاً، وتستمر فرقتهم لأنهم غرقوا في المجاملات وإظهار خلاف الباطن والثناء على ما يكرهون. وأحيانا إظهار

الذم لما يعتقدون كي يمرروا هذه الوحدة الهشة، فإذا هبت رياح المواقف والمحن أطاحت بكل هذا وعادت أجسادهم ومواقفهم شتى كقلوبهم تماما.

وقد ذكر القرآن الكريم مثالاً رائعًا للوحدة الحقيقية الناجحة وهي التي قامت بين المهاجرين والأنصار، والتي كان أهم مقوماتها صفاء القلب والصدر من كل سوء وغل،وسيطرة المحبة الخالصة الصادقة على المشهد لا محبة القبلات أمام الكاميرات.

فاقرأ وتدبر ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)** ﴾ **سورة الحشر.**

وكذلك وحدة الأوس والخزرج في المدينة والتي قامت بعد عقود من القتال والدماء والثأر إنما قامت آليا بعد توحد القلوب والاعتقاد أولا، تغلغلت كلمة التوحيد ولوازمها في القلوب فتيسر توحيد الكلمة، ولم تقم على المجاملات والمصالح الدنيوية

المشتركة فحسب، وفي خلال سنوات اجتمع داخل جسد الأمة عرب وفرس وحبشيون وعجم، واجتمع من كان يهوديا مع من كان نصرانيا مع من كان مجوسيًّا مع من كان مشركًا.

وهذه منحة من الله تأتي بعد تطهير القلوب وإخلاصها وتوحيد وجهتها لله تعالى ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)** ﴾ **سورة الأنفال.**

الوقفة الثانية: عندما تغيب مفاهيم الوحدة الحقيقية

ولأن الحرص على الكم صار مقدما على الكيف، ولأن التحالفات أصبحت تقام على المصلحة القريبة البحتة يزداد توسع الخطأ واختلاط المفهوم، فلا يضم الصف فقط مخلصين مختلفين غير متصارحين فحسب، بل إننا نسقط كثيرًا في فخ مجاملة أهل النفاق والتحول بل ومجاملة الأعداء ظاهري العداء وضمهم إلى الصف بحجج مختلفة.

فمن يحالفهم تكثيرًا للعدد ومن يحالفهم استفادة من شعبية بعضهم وبدعوى أن هذه الشعبية ستفيده في الإصلاح أو حتى في دعوته إلى الله، ويكرم الفاسد للاستفادة من ماله الحرام ويمجد

القاتل لتحييد بندقيته، ويوصف الكافر بالإيمان للاستفادة منه وما إلى ذلك، ويظن الظآن أن المنافق والعدو والفاسد والقاتل سيحفظون هذه الوحدة وسيكونون عونا له على إصلاح، هم سيكونون أول ضحاياه إن تم على وجهه الصحيح، أو سيكونون عونا له على بناء دولة قوية أول أهدافها هي تحرير الأرض منه والحد من هيمنته في العالم، وهيهات!!

فقبل أن يكون ذلك مخالفا للقرآن الكريم وسنن الله في الكون فهو مخالف لأبسط قواعد المنطق، هو مخالف للقرآن الكريم الذي نهى عن مجرد اتخاذ بطانة من العدو:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾ سورة آل عمران.

ونهى عن موالاة العدو والثقة فيه في مواطن كثيرة منها أواخر سورة المجادلة وعموم سورة الممتحنة والمنافقون، قال تعالى **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ﴾** سورة المجادلة

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾ سورة الممتحنة.

وحذرنا من كل منافق أفاك وعدم الاغترار بجميل الخطاب وكلمات المحبة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ سورة المنافقون.

بل أمرنا بوضوح بجهادهم والنضال ضدهم بشتى الصور لا التوحد معهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ﴾سورة التحريم.

وهو مخالف للمنطق؛ لأن خصمك لن يعينك أبدا على الوصول إلى درجة تستطيع ضربه منها أو الخروج من هيمنته، فكل هذه المحاولات أقل أضرارها أنها تضييع للوقت وترقى أضرارها إلى حصول ميوعة في المعتقد والمبدأ والتنازل عما لا يصح التنازل عنه ويا ليته بمقابل بل هكذا دون مقابل.

إن من الآثار شديدة السوء لهذا الخلط التوقف عن قول الحق وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنك إن قدمت الوحدة على المبدأ صار لزاما عليك عدم الخوض في

أمور ومناقشات تضايق حلفاءك، وبالتأكيد سيغضب حلفاؤك إذا ما أنكرت عليهم وقوعهم في منكرات إذا كانوا مسلمين أو وقوعهم في الكفر إذا كانوا غير مسلمين، فتتوقف وهم لن يتوقفوا، وتنسى الأصول مع الوقت لقلة تناولها وتنشأ أجيال لا تعلم هذه الأصول أصلا لأنها لم تشرح لهم ولم يسمعوها من أسلافهم الذين حرصوا على كتمانها إرضاء لخصومهم؛ لذلك في الكثير من التيارات الدعوية العاملة بهذه القاعدة الخاطئة تجد أن مستوى الأجيال ينحدر بالتدريج، ومستوى التصريحات أيضًا إلى الحد الذي يصل للقول أنه لا خلاف اعتقادي بيننا وبين غير المسلمين أصلا!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم فتدمر أصولا وأجيالا من بعدهم، وحساب الآخرة أشق!!

ومن العجيب أيضًا أن هذا الحرص الشديد على الوحدة والتآلف مع من لا يمكن التآلف معهم لا ترى معشاره في التعامل مع أبناء نفس الأمة ونفس البلد وأحيانا نفس الأسرة.

يوالي الناس ويعادون على تفاهات وانتماءات حزبية عصبية مقيتة تؤدي لتفرق المسلمين ذوي العقيدة والشريعة

الواحدة، ثم يتركون الموالاة والمعاداة على ما هو أهم وهو أصل العقيدة والشريعة ويتعللون بعلل واهية ويلوون عنق النصوص للاستدلال على تلك المواقف، فخالفنا الوصف القرآني لأصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم- فأصبحنا أشداء على بعضنا رحماء متنازلين لغيرنا ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)** ﴾ سورة الفتح. فلا تتحقق الوحدة الحقيقية القائمة على وحدة العقيدة والتوجه، ولا تستمر الوحدة القائمة على المصلحة والمخالفة للشرع، وبالتالي لا يأتي الفتح أبدًا!

ولا أحتاج أن أشير هنا أن الوحدة والتآلف المعنيين بكلامي يختلفان عن المعاهدات والاتفاقات التي يمكن أن تقوم مع أي أحد مهما اشتدت عدواته بضوابطها الشرعية، حتى لا يحدث خلط عند القارئ الكريم.

الوقفة الثالثة: براءة نبي اللّه هارون

كل إنسان منا قد يقع في مخالفة. كل إنسان منا قد يحيد بسبب رغباته الدنيوية أو قصر نظره. ونسأل الله الهداية والسلامة!! ولكن أسوأ سقوط هو الذي يتم شرعنته وأسوأ مخالفة هي التي تتم باسم الدين بل ويتم تبريرها على حساب اتهام نبي من أنبياء الله ضمنًا بما ليس فيه.

فالذين يقدمون الوحدة مع أي أحد -ولو كان عدوا- على العقيدة والولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كثيرًا ما يحاولون البحث والتنقيب عن أي شيء يؤيد مسلكهم حتى لا يتهموا بمخالفة الشرع، الأصل أن تستدل ثم تعتقد، تبحث في كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بفهم منضبط كي تصل للحكم السليم فإذا وصلت له اعتقدت فيه والتزمته، أما من يعتقد أولا ويحدد ما يريد ثم يستدل يقع في العجائب والأمور الجسام.

كلما ناقشت أصحاب هذه الفكرة هرولوا للاستدلال بقصة عبادة بني إسرائيل للعجل، وادعوا فيها أن نبي الله هارون والذي خلفه نبي الله موسى في بني إسرائيل إذ ذهب موسى لميقات ربه، ادعوا أن نبي الله هارون تركهم وما يفعلون دون تدخل منه حرصًا

على وحدة بني إسرائيل، فإنه إن نصحهم واشتد عليهم في النصح تفرقوا، ويقولون بجرأة رهيبة (انظر كيف قدم نبي الله هارون قيمة الوحدة على التوحيد)! مرددين قوله تعالى ﴿ **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)** ﴾ سورة طه.

وهذا مثال عملي على ما يؤدي إليه الفهم الخاطئ النابع عن الأهواء، وعن الاستدلال المعتمد على الاجتزاء، فقد اجتزأوا الآية أولا من سياقها السابق والذي فيه ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)** ﴾ سورة طه.

وفي سورة الأعراف ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)** ﴾ أي أن نبي الله هارون وصل لحالة من النصح والتوجيه والإنكار عليهم أنهم كادوا أن يقتلوه! فكيف يقال صمت! وكيف يقال تركهم وما يعبدون من دون الله!

إنهم يفسرون عدم اتباع نبي الله هارون لأخيه موسى بأنه عدم اتباع في الدعوة والتبليغ ﴿ **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)** ﴾ وهذا باطل يظهر بطلانه من سياق الآيات ومن آية الأعراف، وإنما – وراجع في ذلك تفسير ابن كثير إن شئت – كان عتاب موسى لأخيه أنه لم يتبعه في الطريق ويخرج خلفه ليخبره بما حدث ليعود إليهم، وهنا كان رد نبي الله هارون أنه لو فعل هذا لتفرقوا تماما؛ لأن المؤمنين قد يخرجون خلفه، ولأن عدم وجوده قد يزيد المفتونين، فظل قائما بينهم ينصح ويحارب الفتنة التي نشأت بينهم قدر استطاعته حتى يرجع إليه أخوه، بقي ليظل صمام أمان للمؤمنين وبابا لعودة الهالكين ولأن بقاء الوضع على ما هو عليه – بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر – أرجى من افتراق المؤمنين عن الكافرين تماما، وكان ذلك صحيحًا إذ تاب عابدوا العجل بعد عودة نبي الله موسى ونصحه لهم مع أخيه.

الوقفة الرابعة: إلى أصحاب القلوب الشتى

ستظل القلوب شتى ما لم تتوحد عقيدتها ومبادئها!!

ستظل القلوب شتى طالما ابتغت الوحدة بمخالفة الشرع!!

ستظل القلوب شتى طالما حرصت على الخصم أكثر من الأخ، وعلى العدو أكثر من الحبيب!!

ستظل القلوب شتى طالما استمرت الوحدة هدفًا دنيويًّا مرحليًّا خاطفًا، لا هدفا طويل الأمد يؤخذ بأسبابه كلها ونسير إليه خطوة خطوة مخلصين لله تعالى متبعين لنبيه - صلى الله عليه وسلم- الذي جمع ربنا حوله القلوب التي لم يكن يظن أحد أبدًا أنها قد تجتمع.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

تسامح لا دروشة

من أشهر خصائص الإسلام وأوضحها، ومن أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المسلم، من أوسع أبواب تأليف القلوب وتماسك المجتمعات وانتشار المحبة والهدوء والتراحم، ولكن شأنها شأن أي شيء وأي صفة، ينبغي أن تظل في الإطار الذي وضعت فيه ولا تخرج عنه حتى لا تفقد معناها وينعكس تأثيرها..

الوقفة الأولى: الثلاثية الأصلية

حرم الله تبارك وتعالى الظلم، وشرع العـدل والقصاص واسترداد الحق، وندب وحث على الفضل والعفو والتسامح.

ثلاثية المفاهيم التي تتعلمها وأنت تقرأ قول الملك جل في علاه ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ**

اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ سورة الشورى.

الظلم والبغي حرام هذا لا مراء فيه، أما العدل واسترداد الحق فهما الأصل ، فالإسلام كفل لكل مسلم استرداد حقه ورد الإعتداء عن نفسه ما لم يجاوز الحد ويأخذ أكثر مما أخذ منه، بل جعل الانتصار ضد البغي واسترداد الحق من صفات المؤمنين التي جاءت في سورة الشورى، فالآيات بدأت بقوله تعالى ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)** ﴾ وجاء من صفات الذي آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)** ﴾

فاسترداد الحق ومعاقبة الظالم ليسا من الأمور المنكرة كما يظن البعض بل هما من الأمور المشروعة بل المحمودة، فمن الناس من إذا أمن العقوبة أساء الأدب وأساء الفعل وزاد بغيه

ولمثل هذا شرع الإسلام الأخذ على يديه واسترداد الحق منه.

إن المثالية ليست في أن يتلقى المرء الصفعات من كل جانب ولا يتحرك، بل إن المثالية أن يعامل كل إنسان بما يستحق، فاسترداد الحق بالعدل هو الأصل، وإنما المنكر هو تجاوز الحد في العقوبة والقصاص، فالسيئة بالسيئة لا تزيد، والفجر في الخصومة لا يجوز، فمن الناس من يستغل أبسط إساءة تحدث له ليردها عشرات الأضعاف وهذا محرم لا يدخل في الانتصار المحمود.

ومع هذا التشريع العادل حث الإسلام ذلك المسلم القادر على الانتصار لنفسه على العفو والتسامح ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ (١٢٦)** ﴾ سورة النحل.

﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)**﴾ سورة الشورى.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)** ﴾ سورة البقرة.

﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا**

تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ سورة النور.

﴿ **لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)** ﴾ سورة النساء.

إذن، فالتسامح والعفو فضيلة عظيمة لمن أراد أن يزداد قربة إلى الله.

أما المفهوم الشائع في زماننا أن التسامح فريضة وأخذ الحق بالمعروف حرام فهو مفهوم خاطئ مخلوط أدى إلى تحريم الحلال، فإذا ما طالب مسلم بحقه لا سيما إذا كان متدينا وصف بالطمع والجشع والقسوة وقيل له: أين أنت من الإسلام؟!

والإسلام الذي نزل من عند رب البشر لا يجور على الضعيف المظلوم كما يفعل البشر.

البشر يطالبون المظلوم دوما بالتسامح كي يرفعوا عن أنفسهم حرج الوقوف ضد المعتدي، أما الإسلام فأعطى للمعتدى عليه حقه في الانتصار وخيّره في أن يعفو فيكون هو صاحب اليد العليا.

ومن المشهور في ذلك مثلا تحريم أخذ الضمان أو ما يسمى بالعوض، يفسد الرجل لأخيه ماله أو سيارته أو بيته

وما شابه ثم يحمل الناس صاحب الشيء التالف تكلفة خطأ غيره ويقولون (العوض حرام) وإذا طالب به وأخذه انتقدوه وانتقصوه ووصفوه بأسوأ الأوصاف، في حين أن الشرع ألزم المتلف بتعويض مالك الشيء عما أتلفه له، وراجع في ذلك كل كتب الفقه إن شئت، أما أن يرفض المالك أخذ العوض فهذا فضل منه ومنة وكرم يحمد عليها.

الوقفة الثانية: التسامح والدروشة

إن تحريف مفاهيم التسامح لم يكن سوى حلقة من سلسلة الدروشة التي تعيشها الأمة.

الأمة إذا غلب على الكثير من أبنائها حب الحياة والاستقرار -مهما غلا ثمنه ومهما أتى ذلك على حساب كرامتها- عمدت إلى تجميل صورة التخاذل والخنوع والمذلة لإظهارها في صورة التسامح والعفو.

وفي الحقيقة أن التسامح أصلا لا يكون إلا عن قوة وعزة وقدرة من المتسامح على استرداد حقه. أما إذا كان صاحب الحق أصلا لا يملك استرداد حقه ولا يملك الانتصار لنفسه فهذا مظلوم مقهور لا متسامح متفضل.

فمن أراد أن يكون متسامحا ينبغي عليه أن يكون قويا، أما أن تترك نفسك في ضعفك وهوانك وترفض أن تتخذ سلم الرقي والصعود وترفض أن تدفع ضريبة التقدم ثم تسمي تحملك لصفعات العالم لك تسامحا فهذا كذب، وإنما هو مذلة وهوان لأنك لا تملك أصلا رد الصفعة ولا استرداد حقك، ولم تأخذ بأسباب ذلك، فمن يأخذ بالأسباب ولم يتمكن من دفع البغي عن نفسه فقد أدى ما عليه وهو مظلوم سينصره الله تعالى، ومن ركن وترك العمل وسمى ضعفه تسامحا فهو مستمرئ للهوان والضعف، يأكل الخبز بـ"الجبن".

إن حالة الدروشة المسماة كذبا بالتسامح تمت صناعتها بمهارة وإتقان ولم تكن وليدة اللحظة، فآيات كالتي ذكرناها عاليا في سورة الشورى لا تكاد تجد داعية أومعلما يقف عندها ليشرحها.

يقرأها كلها في الصلاة وفي ختمة رمضان ولكن إذا ما شرح تجاوز عن قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ ومر عليه مرورا خاطفا ثم أسهب وزاد وعاد في شرحه لقوله تعالى ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)** ﴾ يذكر أحاديث عفو النبي – صلى الله عليه وسلم– وتجاوزه ولكن

لا يذكر أبدًا مثلاً أوامر النبي – صلى الله عليه وسلم– بقتل بعض الطغاة العتاة أمثال كعب بن الأشرف الذي كان يسب النبي – صلى الله عليه وسلم– والإسلام ونساء المؤمنين في شعره ويساعد على توحد المشركين ضده.

يتحدث عن عفو النبي – صلى الله عليه وسلم– عن أهل مكة في الفتح ولا يذكر أن في نفس الفتح أمر النبي – صلى الله عليه وسلم– بقتل عدد من المشركين ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ولم يشملهم بعفوه وتسامحه لشدة جرمهم، بل ويؤلفون ويرددون قصصًا لم تثبت سندًا ولا تصح متنا كاليهودي الذي كان يلقي القمامة أمام بيت النبي – صلى الله عليه وسلم– يوميًّا فلما فقده النبي يوما سأل عنه فعلم أنه مريض فذهب لعيادته، قل لي بالله عليك النبي – صلى الله عليه وسلم– في المدينة حاكما وقائدا هل سيجرؤ أحدهم أن يفعل ذلك معه ويوميا! وإن عفا النبي – صلى الله عليه وسلم– فأين أبو بكر وعمر وسائر الصحابة من رد هذا الإيذاء عن النبي – صلى الله عليه وسلم– ومنعه؟!

تردد هذه القصص بوصفها دلالات على التسامح ولكنها خلط بين التسامح وقبول الإهانة، وما صح منها ينبغي أن يقال. ولكن يقال معه أيضًا القصص والمواقف التي تدل على قوة

المسلم ومهابته واسترداده لحقه إن أراد حتى تكتمل الصورة وشموليتها في عقلية ووجدان المسلمين.

ويفرق المسلم بين التسامح والمذلة، ويعلم غير المسلم أن التسامح تفضل وتكرم من المسلمين، فلا يحدث هذا الابتزاز الشائع عندما يرد المسلم عن نفسه البغي يوصف بأشد الأوصاف ويقال له: أهذا هو تسامح الإسلام؟!

نعم هو، تسامح مبني على العزة والقوة لا على الذل والمهانة وإدارة الخدود لمن يريد أن يتسلى. وللأسف يحدث هذا أيضًا بين المسلمين وبعضهم إذا طالب به مسلم يبدو عليه سمات التدين بحقوقه ابتزوه، كيف تقول هذا وأنت ملتزم؟!

أهذا هو إسلامكم؟!

هذا إسلام لا نعرفه، رغم أن هذا المتحدث عادة لا تجده يترك مليمًا من مستحقاته عند أحد ولا يقبل إهانة من أحد ولكن الناس أخذوا انطباعًا أن صاحب الدين والخلق ينبغي أن يكون ضعيفًا مهانًا متنازلاً يلعب به الصبيان في الطرقات، وهذا انطباع خاطئ تماما.

الوقفة الثالثة: التوازن هو الحل

وبالقطع ليس المقصود بهذا الكلام هو ترك التسامح بالكلية؛ وإلا وقعنا فيما ننتقد من أخذ نصف الصورة وترك النصف الآخر. ولكن المقصود هو التوازن والتوسط.

فللمسلم أن يتسامح ويتفضل كما يشاء ويرجو من الله الأجر مادام التسامح عن عزة وقوة لا مذلة وضعف، ولكن في بعض الأحيان ينبغي – في رأيي – أن ينظر فيما وراء التسامح، لا يكون القرار أنانيا محضا. فالتسامح لا يفهمه كل أحد ولا يؤتي ثماره مع كل خصم؛ لذا شرع القصاص وأخذ الحق وشرع التسامح كي ينظر المسلم أيهما أنفع بحسب الموقف؟!

وقد تقدم ذكر أن النبي – صلى الله عليه وسلم– كان يعفو أحيانا ولا يعفو في أحيان أخرى، وفي نفس الموقف يعفو عن أناس ولا يعفو عن آخرين بحسب جرمهم وأثره كما في فتح مكة، فإذا كان العفو سيشعر المعتدي بالأمن تجاه المسلمين ويزيد بطشه معهم يختلف عما إذا كان العفو لن يترتب عليه أثر كهذا بل قد يؤلف قلب المعتدي.

فمثلا إذا كان من أتلف لك متاعا رجلا معروفا بالصفاقة

والتهور وكثيرًا ما أتلف لأناس قبلك أشياء وسامحوه فزاده ذلك استهتارا بحقوق المسلمين فقد يكون الأولى أن تحفظ من بعدك بتقديم أخذ الحق على العفو.

وكذلك إذا كان رجل يستخف بدماء المسلمين وقتل أحدا أنت وليه قد يكون من مصلحة المسلمين ألا تعفو حتى لا يقتل المزيد.

إن التسامح كما يلين قلوب ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)** ﴾ سورة فصلت فإنه يزيد من بطش وحيود آخرين، وعقابهم يؤمن المجتمع ويحميه ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)** ﴾ سورة البقرة. لذا لا ينبغي أن تكون النظرة سطحية، بل التوازن المبني على عمق التقدير وحسن التفكير هو غاية إسلامية ينبغي الحرص عليها.

الوقفة الرابعة: التسامح في حق من؟

مفهوم أن يتسامح المرء في حق نفسه، تسامحا مطلقا أو تسامحا بمقابل أقل من حقه.

مفهوم أن يحث أحدهم صاحب الحق على التسامح ثم يترك له الخيار.

ولكن العجيب في زماننا أن كثيرا من الناس يعطون أنفسهم حق التسامح فيما لا يملكون!

تسمع عن جلسات تفاوض ونقاشات حول التنازل عن حقوق من قتلوا مثلا في أحداث ما ولا يجلس في هذه الجلسات واحد من أولياء الدم! ولم يوكل أولياء الدم أحدا منهم للحديث باسمه!

يظلم موظف فتجد أن فئة من رؤسائه جلسوا دون علمه ليناقشوا تنازله عن بعض حقوقه واكتفائه ببعضها ثم يخبرونه بالنتيجة وهو لم يفوض أحدا منهم لمناقشة مثل هذا الأمر!

صدقني يحدث هذا بالفعل؛ ولأن النار ليست في قلبك ولأن الحق ليس حقك فما أسهل التنازل وبيع الحقوق، ولأن الدروشة مسيطرة فما أسهل أن تصف صاحب الحق الرافض لنتائج مفاوضاتك بأنه انتقامي غير متسامح، متحجر ليس مرنا، ثم تتخذ ذلك ذريعة بعد ذلك للتخلي التام عنه؛ بل ولمظاهرة خصومه عليه فهو يستحق، وهو من جلب ذلك لنفسه، وقلنا فلم يسمع، ونهيناه عن المطالبة بحقوقه فلم ينته، فليتحمل!!

إن التسامح حق للمعتدى عليه وحده وليس لك. وإنما

واجبك أن تنصره إذا ما قرر أخذ حقه، أما أن تتسامح بالنيابة عنه كي تفلت من واجبك نحوه فيا له من سلوك ذميم!!

والعجيب أن نفس هذا الشخص لن يقبل أن يتسامح أحد في حقه إذا وقع الاعتداء عليه هو، وسيصف من يتخلى عنه حينها بالخيانة والنذالة والغدر، والمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكن للناس كما يتمنى أن يكون الناس له، ولكن للأسف هذا كثيرًا ما نفتقده في حياتنا.

الفصل العاشر

موازين مائلة

كل فصول هذا الكتاب إنما قصدت بها - سائلاً الله الإخلاص - الإسهام البسيط والمتواضع في ضبط الكثير من الموازين المائلة في واقعنا المضطرب عسى أن يكون هذا الاتزان هو أول خطوات النهوض والخروج من الأزمات، إلا أنني في هذا الفصل سأخص عددًا من تلك الموازين المائلة لنناقشها ونعمل على ضبطها.

الوقفة الأولى: ميزان الأغلبية

إن الوصول للحق دوما هو هدف المؤمن في حياته وسط الأمواج المتلاطمة والابتلاءات المتتالية، وكثيرًا ما يتخفى الباطل في صورة الحق، وكثيرًا ما يبدو الحق للناس وكأنه باطل، فيحرص الناس على إيجاد وسيلة لتمييز هذا عن ذاك.

ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه يكره الغربة ويحب أن يكون مع التيار السائد؛ ليتجنب معاناة السباحة عكس التيار، لذا فقد غلب

على الكثيرين استخدام ميزان العدد بوصفه وسيلة لتحديد أين يقف؟ومن يتبع؟

تفتنه الكثرة ولا يستطيع أن يتصور أن هذه الكثرة من المحتمل مجرد احتمال أن تكون على الباطل، شعاره)هل كل هؤلاء لا يفهمون؟!)

ولأن الله هو من خلق الناس ويعلم ما يدور في نفوسهم ولا تخفى عليه بواطنهم ومواطن ضعفهم، ولأن القرآن يقي المسلم من المشكلة قبل أن تقع فقد نبه في مواطن عديدة على أن الكثرة ليست مقياسا لشيء بل إنها عادة مذمومة بعيدة عن الصواب فتكرر في كتاب الله معنى أن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعلمون، ومن تلك المواطن قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ **قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (١٠٠)﴾.

الطيب طيب وإن لم يفعله أحد، والخبيث خبيث وإن فعله كل أحد.

الحق ما أمر به الله وما أمر به رسوله – صلى الله عليه وسلم–

وما كان عليه النبي وأصحابه بغض النظر عن عدد من اعتنقه وعدد من حاد عنه.

لذا كان من الطوام استدعاء نظرية الحشد في هذا المجال، والاستدلال على صواب المنهج بعدد أتباعه والهاتفين باسمه، فتم تقديم الإسلام على أنه مجرد إرادة بشرية لعدد كبير من الناس ينبغي اتباعه والتزامه فقط لكثرة المنادين بتطبيقه وليس دينا سماويا واجب على كل معتنقيه العمل بكل ما فيه سواء كانوا قلة أو كثرة. وهو ما استفضنا فيه في الفصل الأول.

وكان هذا إخلالاً كبيرًا أدى بعد ذلك إلى قول الكثيرين بالعكس عندما اختل ميزان الحشد.

ومن وضع هذا الميزان من البداية يتحمل قدرا كبيرا من المسئولية، بل كان على كل مخلص أن يدعو للإسلام كما هو وأن يوضح للمسلمين أحكامه وأركانه ومترتباتها دون أن يدخل الأعداد في المعادلة إطلاقا، وإلا فالمسلمون قلة في الأرض فهل هم على باطل؟! وأهل السنة قلة في بعض البلاد فهل هم على ضلال؟!

ينبغي أن يعلم المسلم دينه ويتحرى الحق ويتمسك به ويدعو

إليه وإن كان وحده ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)** ﴾ **سورة المائدة.**

ولا ينبغي أن نمر على هذه الآية الكريمة دون ذكر تعليق الصديق أبي بكر عليها) يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإنا سمعنا النبي - صلى الله عليه وسلم- يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب) رواه أبو داود وصححه الألباني.

خشي أبو بكر الصديق أن يظن الناس أن الآية تدعو لترك الدعوة والإصلاح فنبه على ذلك، فهي في الحقيقة تثبت أهل الحق عليه وتحميهم من الافتتان بكثرة الخبيث والضلال.

ولأن كل خطأ للأسف يرد عليه بخطأ آخر، ولأن كل تطرف يقابل عادة بتطرف، فإن الكثير بعدما رأوا كيف استخدمت نظرية

الكثرة والحشد إذا بهم يسلكون الطريق المعاكس ويتبعون القلة لمجرد أنهم قلة، ويتركون الفكرة والفعل لمجرد أنها تصدر عن كثرة ويظنون أنهم بذلك يستعلون على ما يسمونه «نظرية القطيع» وما شابه.

فأصبحت القلة والندرة هي ميزانهم وأصبحت غاية في حد ذاتها، فتسمع منهم كل غريب وترى منهم عجائب، ما وقعوا فيها بحجة ودليل وإنما فقط ليخالفوا التيار.

وهذا أيضًا ميزان منحرف، فليس كل مشهور منتشر بين الناس خطأ، وليس كل نادر قليل صوابا.

منهم السطحي الذي يفعل ذلك دون أي محاولة لتقنينه، تمرد لأجل التمرد وتميز من أجل التميز، ومنهم من يسعى لإعطائه الشكل العلمي التنظيري فيغوص في بطون الكتب يستخرج الآراء الغريبة المردود عليها منذ زمن بل إن منها ما يكون قد تراجع صاحبها نفسه عنها بعد ذلك، فينشر ويكتب هذه العجائب ليتميز وفي نفس الوقت يعطي نفسه ثقلا علميا بهذه النقولات، فإذا خالفه الجمع الكثير وردوا عليه فلا بأس فهم «قطيع»، وإذا هاجمه بعضهم بشدة تفاءل، فما يسميه

هدم الأصنام وكسر «التابوهات» له ثمن، كما أن الهجوم يكثّر المتابعين والمعجبين ولا بد، وكلما هدأت الأجواء حوله فجر قنبلة جديدة وهكذا، ويجد له متابعين من أصحاب نفس الفكرة، خالف المجتمع دوما تكن مصيبا مفكرا عبقريا حتى لو كان الموقف العام للمجتمع في هذه النقطة صوابًا وصحيحًا.

إن الإسلام الذي حذر من التبعية العمياء للكثرة هو الإسلام الذي أمر بالتزام الصف والصحبة الصالحة ما التزموا الصواب، فالكثرة ليست مقصودة وأيضًا الانفراد والندرة ليسا هدفًا، فدر مع الحق حيث دار واضبط موازينك، وأول خطوات ضبطها إخراج العدد من المعادلة سواء كان قليلاً أو كثيرًا.

الوقفة الثانية: ميزان النعم

وهو من الموازين التي يكثر استخدامها أيضًا من قبل الكثيرين لتقييم الحق والباطل والصواب والخطأ لذا فدعونا نتتبع هذا الميزان في كتاب الله عز وجل لنفهم مدى دلالاته وما هي ضوابط استخدامه في ضبط مواقفنا وتوجهاتنا؟

هل الرخاء يعبر دائما عن رضا الله عز وجل عن المنعمين؟

ذكر القرآن الكريم أصنافا من المنعمين المغضوب عليهم

منها على سبيل المثال لا الحصر..

﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ سورة آل عمران.

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) ﴾ سورة التوبة.

وفي حديث نبي الله صالح لقومه ثمود ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ سورة الشعراء.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ سورة سبأ.

إذن فمعنى ذلك أن الرخاء يعبر دائما عن غضب الله على المنعمين كما تبين في الآيات السابقة وغيرها كثير، هل هذا صحيح؟

تأمل في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ سورة الأعراف.

وفي قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ سورة النحل.

وقوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ سورة سبأ.

إذن فهل معنى ذلك أن النعمة والرخاء لا يمكن أن يستخدمان بأي صورة من الصور لقياس مكان المرء والأمة من الشرع، لا يمكن أن يدلا على شيء أبدًا؟

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ سورة الأنعام.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء

لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ سورة الأعراف.

من مجمل الآيات الكريمات يتبين لنا أن ميزان النعم من الموازين التي ممكن اعتبارها في تقييم حال الفرد وحال الأمة ولكنه ليس ميزانا مستقلا قائما بذاته.

من الآيات يمكن أن يكون الصالح منعما أو مبتلى، وممكن أن يكون الطالح منعمًا أو مبتلى، ولكن دلالة النعمة مع وجود الصلاح والالتزام بدين الله دلالة طيبة جيدة ودعوة للشكر والاستمرار في الطاعة والقرب من الله.

أما وجود الابتلاء مع الالتزام فهو أيضًا امتحان وتمحيص ورفع درجات ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ سورة البقرة.

أما المحنة والكرب مع وجود المعصية والبعد فهي نداء وتذكير وإفاقة لذلك الغافل العاصي عساه يرجع إلى ربه ويعود، أما قمة الخطر في أن تأتي النعمة مع المعصية فهي استدراج

وباب هلاك كما تبين ﴿ **فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)** ﴾ **سورة الأنعام.**

إذن فليست النعمة في ذاتها دلالة رضا أو غضب وليس الابتلاء في ذاته دلالة رضا أو غضب.

فينبغي أن ينظر معه في حال المرء وحال الأمة ومدى قربها وبعدها من دين الله؛ لذلك فإن الذين يفخرون بابتلائهم وتضحياتهم وكربهم ويتخذونها دلالة في ذاتها على صلاح مواقفهم ومناهجهم حجتهم داحضة عليهم أن يثبتوا صحة مواقفهم ومناهجهم بالقرآن والسنة أولا قبل أن يقال أن هذا البلاء بلاء خير!

والعكس هو الصحيح؛ فإن العمل على تحقيق النعمة والرفاهية دون الالتزام بمنهج الله باب هلكة لا باب خير، والمتحدثون عن أن الرفاهية أولا ثم الإسلام إذا حققوا شيئا من ذلك فعليهم أن يخافوا ويرتعدوا إذ وفقهم الله للنعيم دون الالتزام الكامل بالإسلام.

أما إذا وجدوا أنفسهم فاشلين في تحقيق ذلك فليشكروا الله

وليعودوا إليه بدلا من أن يستزيدوا من التنازلات والبعد عن الحق الثابت قرآنًا وسُنة.

إن قمة الفتنة أن تروج للناس فكرة الالتزام بالدين بأن تقص عليهم قصص شعوب حققت الرفاهية دون دين أو بكثير من التنازلات فيه!

أنت تقول لهم صراحة أن الإسلام ليس الحل كما تزعم لا سيما بعدما روجت للإسلام بوصفه مشروعا دنيويا تنمويا كما بيّنت في الفصل الأول.

قمة الفتنة أن تدعو الناس للرفاهية المطلقة ثم تنتظر أن تأتيهم بعد ذلك وتحدثهم عن تطبيق الإسلام ذي الفاتورة الغالية بعدما ذاقوا الراحة والنعيم، أنت لا تدعوهم بتلك الرفاهية السطحية إلى الدين بل أنت تصعب عليهم الامتحان، بل وتصعب على نفسك أنت أيضًا، فقد تكون أول الراكنين إلى الدنيا اللاهين فيها، ناهيك عن أن تحقيق ذلك التقدم والرفاهية أمر نسبي وأمر لا نهاية له، فالفرق بينك وبين العلماني الفاصل تماما للدين عن الحياة أنه من الآن يفصل بينهما للأبد، أما أنت فتفصل بينهما إلى أمد لن يلبث إلا ويتحول عمليا إلى الأبد.

الوقفة الثالثة: ميزان القتل

إن النفس البشريه لها قدرة عالية على التكيف وإلف أي شيء. وما تكرر تقرر.

وإن من طوامها أنها تألف سماع أعداد القتلى ومشاهدة صورهم.

في بداية أي أزمة سواء كانت احتلالا خارجي لبلد مسلم أو ثورة داخلية أو حتى في الحروب الأهلية أعاذنا الله منها ينزعج السامع في البداية مع كل خبر يحمل في طياته رائحة الدم ولو قتيلا واحدا، ثم يألف أخبار قتلى الآحاد وينزعج إذا كان العدد بالعشرات، ثم يألف العشرات وينزعج إذا سمع بالمئات، وتدور النقاشات ويقع الجدل بسبب هل القتلى ألف أم مائة فقط، عشرون أم خمسة فقط؟!

وكأن المشكلة في العدد، وأن العدد القليل مقبول ويمر، ولكن إذا كثر العدد وقعت المشكلة، ومقياس الكثرة يختلف من شخص لآخر وضمير لآخر.

إن سورة المائدة ذكرت لنا قصة أول حادث قتل في التاريخ، قصة لم يمت فيها إلا واحد فقط، أفردتها كلها وذكرت خسران القاتل وبؤسه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾.

ثم أعقب القصة قول الله تعالى:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾

إن قتل واحد كقتل الناس جميعا طالما قتل بغير وجه حق.

فما نراه في واقعنا من اهتمام شديد من مؤيد القاتل بتقليل أعداد المقتولين واهتمام من خصوم القاتل من تكثير أعداد

المقتولين وكأن قتل العدد القليل بلا ذنب لا يهم وأن كثرة العدد فقط هي الجريمة يعكس فسادا منهجيا وفكريا!!

إن الإغراق في مناقشة الأعداد بدلا من مناقشة حق المقتول في الحياة يحولنا إلى مسوخ ومصاصي دماء يفاصل كل منا في سعر عشائه.

إن وراء كل روح تزهق بغير حق قلبا له آمال وأحلام وأسرة فقدت عائلها أو ابنها ونار تحرق قلوب الأحباب والأصدقاء.

إن المقتول ظلما ليس رقما في جدول في مسألة رياضية، وليس بندا في برنامج انتخابي بل إن دماءه عند الله أشد حرمة من هدم الكعبة وقتله كقتل الناس جميعا.

إن أول خطوة لكسر صخور القلوب المتراكمة هي كسر هذا العداد الذي يتعامل مع البشر كأرقام لا كأجساد وأرواح وقلوب تحب وتحَب لها نفس حقوق صاحب العداد الذي يتكئ ويحصي الأعداد ويبالغ فيها أو يشكك فيها ثم يدخل لينام وعين الثكالى والأرامل والأيتام لم تنم!!

إن استبدال ميزان أعداد القتلى بميزان مدى استحقاق المقتول للقتل أو لا واجب عاجل، وضبط ميزان استحقاق القتل

واستحقاق الحياة بالشريعة والشريعة فقط باب النجاة من بحور الدماء التي نعيشها ووحشية القلوب التي سيطرت على الكثيرين إلا ما رحم ربي.

الوقفة الرابعة: ميزان الرجال

من نصدق ومن لا نصدق؟ من نحترم ومن لا نحترم؟ فيمن نثق وفيمن لا نثق؟ مأساة هذا الزمان.

إن المعايير التي يستخدمها الناس في تقييم بعضهم البعض وفي تقييم الرموز والمشاهير تحتاج إلى مراجعة عميقة؛ إذ ثبت أن أغلبها معايير غاية في السطحية، وعلى سطحيتها ينبني عليها قرارات ومواقف خطيرة وحساسة من اتباع وطاعة ومن اختيار لتولي مناصب ومواقع رسمية وغير رسمية يكون ذلك المختار في الحقيقة شديد البعد عن استحقاقها ولكنه التطفيف في ميزان الرجال.

ميزان التضحية من أشهر موازين الرجال، لقد سجن الرجل أعوامًا، أو طرد عقودًا، أو عذب وضرب، أو قد ضحت هذه المجموعة بكثير من أبنائها وفقدتهم على مدار عقود قتلاً وسحلاً... إلخ

إذن فهو على الحق، إذن فهو أولى بالاتباع والتقدير والثقة،

إذن ما يقوله الصواب!!

وفي الحقيقة هو ميزان في الأصل محترم لكن لا يمكن أن ينفرد، لا يمكن أن يكون الميزان الوحيد لتقييم صواب المرء أو خطئه وتحديد موقعه في خريطة الحق والباطل.

إن الكفار أيضًا يقدمون تضحيات ويبذلون أرواحهم في سبيل ما يؤمنون به وهذا معروف وظاهر حتى في حروبهم ضد المسلمين بجانب حروبهم ضد بعضهم البعض والتي يسقط فيها الملايين كالحرب العالمية الأولى والثانية.

أصحاب المناهج الباطلة معلومة البطلان أيضًا يضحون وقد يسجنون ويضربون ويعذبون فهل لهم أن يحتجوا بعظم هذه التضحيات والفواتير على صحة مناهجهم أم أنك عادة تقول خسروا الدنيا والآخرة؟!

وقد ورد شيئ من الأسباب المختلفة للتضحية في الحديث المشهور عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال:(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز و جل) **رواه البخاري**.

فقد يكون تضحية المرء لشيء غير الحق. ونحن لن نملك معرفة ذلك لأنه في قلبه وبالتالي فلا يمكن أن يكون تضحية المرء في حد ذاتها دليلا مستقلا على صواب منهجه ومواقفه.

أما ميزان كثرة العبادة فهو مما يأخذ بعيون الناس وألبابهم فلا يرون أن صاحب هذا العمل والجهد من الممكن أن يكون على باطل ولو في بعض المواقف.

وهنا نقطتان:

الأولى: الفرق بين العالم والعابد؛ لأن الناس كلما رأوا صاحب عبادة اعتبروه عالما فاستفتوه وقلدوه وأخذوا رأيه في الصغيرة والكبيرة وهو ليس أهلا لذلك. وإذا ما سألتهم عن إمكانياته العلمية حدثوك عن عباداته وصلاته وصيامه وصدقته وهنا تدرك فورا أن الرؤية مشوشة.

وليس هذا جديدا ففي حديث قاتل المئة عندما سأل الرجل التائب عن أعلم أهل الأرض دلوه في البداية على عابد وقد ثبت جهل هذا العابد عندما أفتاه بعدم إمكانية التوبة لأنه قاسها بعقله لا بعلم وحجة. أما في المرة الثانية عندما دلوه على عالم بحق أخبره بوجود فرصة للتوبة لعلمه بالله وأسمائه وصفاته وعلمه بشريعة

رب العالمين وليس هذا فحسب بل كان من علمه أن أدرك دون سؤال أن قومه قوم سوء ودله على من يعينونه على الطاعة، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-:(فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم(رواه الترمذي وصححه الألباني.

أما النقطة الثانية: فهي أن دلالة كثرة العبادة لا تدل على شيء في ذاتها في مسألة تقييم منهج الشخص ومدى قربه من الحق، وإلا فكثير من المبتدعة وأصحاب الضلالات لهم أيضا شأن كبير في العبادات لا ينافسهم فيه أهل الحق، بل وكان من وصف النبي - صلى الله عليه وسلم- للخوارج:

(يخرُجُ فيكم قومٌ تَحقِرونَ صلاتَكم معَ صلاتِهم، وصيامَكم معَ صيامِهم، وعملَكم معَ عملِهم، ويقرَؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم، يَمرُقونَ منَ الدينِ كما يَمرُقُ السهمُ منَ الرمِيَّةِ) رواه البخاري.

انظر وتأمل!!

الصحابة هم من يحقرون عملهم إلى عمل الخوارج، وأنت تعلم كيف كانت عبادات الصحابة، ومع ذلك فأصحاب هذه العبادة العالية)يَمرُقونَ منَ الدينِ كما يَمرُقُ السهمُ منَ الرمِيَّةِ).

ثم ميزان الزهد:

الكثير من الناس يظنون أن صاحب الباطل لا يقع فيه إلا لأطماع دنيوية، فإذا ما وجدوا المرء زاهدا لا يظهر عليه علامات الرفاهية، يأكل القليل ويلبس الرخيص ويعيش في البيت البسيط قالوا يستحيل أن يكون على باطل بل هو على الحق وإلا لما يصبر على شظف العيش من أجل معتقده إذا كان معتقده باطلاً.

وفي الحقيقة كما ذكرنا في ميزان التضحية هو ليس بالضرورة يؤمن أن معتقده باطل!

من أين جئت بهذه القناعة!؟

هو قد يؤمن أنه مصيب فيضحي لأجل ذلك بحياته وماله ويعيش في أدنى درجات الرفاهية ولا يعنيه ذلك، ناهيك عن أن هناك أناسا طباعها الزهد حتى وإن لم يكن صاحب منهج أصلا.

إجمالا زين للناس حب الشهوات من النساء والمال والأولاد والسلطة، ولكن قد تجد إنسانًا ميله للمال أقل، أو ميله للنساء أقل، أو ميله للسلطة أقل وما إلى ذلك، فانتبه!! فزهد المرء لنفسه وليس بالضرورة دلالة على شيء، بل إن الصحابة أنفسهم كانوا متفاوتين في الزهد وكلهم على خير، كما كان أيضًا من أهل الضلال أصحاب

زهد ولا يغني عنهم ذلك شيئا.

زوما أدراك ما ميزان التاريخ؟! يكون للمرء أو للفئة تاريخا مشرفا فيه ثبات على الحق فعلا، فيتخذ هذا التاريخ بوصفه دليلا مستقلا ووحيدا على صحة مواقفه بعد ذلك إلى الأبد.

وكأن المطلوب أن تلتزم الحق فترة معينة من حياتك ثم ستحقق عصمة تفعل بها ما تشاء لاحقًا، وقد أثنى الله تعالى على بني إسرائيل وصبرهم وجلدهم في نهاية قصتهم مع فرعون.قال تعالى:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ سورة الأعراف.

ومع ذلك عندما تعددت مخازيهم ومعاصيهم لم ينفعهم ذلك وعوقبوا بالتيه تارة، وبالقتل تارة كما في قصة عبادتهم للعجل، وبالمسخ تارة كما في قصة أصحاب السبت، ووصفهم نبيهم بالفاسقين كما تقدم وأقر رب العالمين هذا الوصف عليهم

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي

الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

وبعدما فضلهم الله على العالمين لحقتهم اللعائن ﴿**وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)** ﴾ سورة البقرة

﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨)** ﴾ سورة المائدة.

إذن فالتاريخ لا يعصم صاحبه في الحاضر ولا يحتج به على صحة مواقفه الحالية، وهذا مما نعانيه في زماننا هذا!!

كلما نصحت أحدًا أو ناقشت مواقفه بموضوعية ترك حديثك وزايد عليك بتاريخه وأحيانا كثيرة بتاريخ لم يعشه هو ولم يشارك فيه. وهذا هو سمت الأمم الفاشلة، تعيش على الماضي وتفعل كل الموبقات في حاضرها باسمه، ليس فقط فيما يخص الجوانب الشرعية الدينية، بل حتى في جانب العمل وبناء الحضارة المادية.

الذين يعيشون في أسر الماضي وذكرياته ويفخرون به لن يدخلوا إلى الحاضر أبدا، فللحياة في الماضي تأثير المخدرات، لماذا أفيق وأتحمل تبعات ومشكلات الحاضر ما دمت قادرا على العيش ملكا وسط سحابة من الدخان تخفي عني البؤس المحيط والواجبات المتراكمة؟!

أقول هذا بشكل عام لنعلم أن التاريخ ليس مصدرا للعصمة وليس دافعا لترك تحري العمل الصائب، بل إن بني إسرائيل أنفسهم وهم يرفضون الأوامر بعد ذلك لم يذكروا نضالهم وصبرهم القديم ليحتجوا به، على خلاف ما يفعله البعض منا في هذا الزمان.

إذن فليس للرجال ميزان سوى ميزان التزامهم بالحق وفي كل موقف؛ إذ إننا بشر قد نلتزم في الكثير من المواقف ونحيد في بعضها، ولو اتبعنا الناس في هذا الحيود تحت أي مسمى فكيف سندرك أننا جانبنا الصواب؟!

والحق هو ما جاء به كتاب الله وسُنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الصحيحة وما كان عليه النبي - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وفي زماننا هذا للأسف أصبح لزامًا على كل منَّا أن يحرص على حد أدنى من العلم والاطلاع ولو في الأصول الأساسية كي تمثل منعة فكرية وشرعية أمام هذه الفتن وأمام تقلبات الرجال، فإن طلب الحق والهداية عموما يحتاج إلى عمل ومجهود وصبر على العوائق المختلفة حتى إن ربنا تبارك وتعالى سماه جهادًا

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ سورة العنكبوت. وإن العمل والصبر والجهد المطلوبين في هذا الزمان أكبر، فمن ينتظر أن يأتيه الحق وهو جالس مكانه سيطول انتظاره، ومن يريد تحديد رجل أو أثنين أو جماعة ينسب الحق الكامل إليهم ويتبعهم اتباعًا كاملاً مستريحا في كل المواقف فلن يصل إلى شيء، وسيحيد كلما حادوا وهو يحسب أنه يحسن صنعًا.

خاتمه

وماذا أعددت لها؟!

إن الحريص على النجاة الباحث عن رضا الله يحتاج دومًا أن تظل عيناه متوجهة إلى يوم اللقاء حتى وهو منشغل بعاداته وأعماله الدنيوية الخالصة التي يقيم بها حياته فإما تتحول إلى عبادة_ إن أخذ فيها نية صالحة أو على الأقل لا يقع فيها في معصية لشدة خشيته من ربه وحذره من اليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر –مع كونه ركنا من أركان الإيمان الستة– لا ينجو المرء إلا بتحقيقه واليقين فيه فإن له أثرا عمليا يوميا في حياتنا كلها.

إن أثر الإيمان باليوم الآخر –ليس فقط– البكاء عند سماع الآيات التي تتناوله، ولكن ينبغي أن يظهر في عمل كل مسلم

وسلوكه، لذا فإن إبهام توقيت قيام الساعة لم ولن يعطل المسلم عن شيء، وذلك لسببين:

الأول:هو أن المرء تقوم قيامته بموته لأنه لا يوجد بعد الموت إلا قيام الساعة فلتكن الساعة بعد آلاف الأعوام في النهاية هي ستقوم بموتك المتوقع في كل لحظة فيدفعك ذلك للعمل الدائم والتوبة المتجددة.

والثاني: أنه لو فرض معرفة ميقاتها فماذا يملك المسلم سوى العمل؟!لذا عندما سأل الرجل النبي – صلى الله عليه وسلم- عن ميقات الساعة لم يجبه الإجابة العقدية فحسب ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)** ﴾ **سورة لقمان.**

بل علمه الدرس الأعظم والأهم وهو العمل لها.

عن أنس – رضي الله عنه-: أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه و سلم عن الساعة فقال متى الساعة؟ قال:وماذا أعددت لها .. الحديث رواه البخاري. فلتكن الساعة غدًا أو بعد ألف عام، فليكن الموت غدا أو بعد قرن، استمر في العمل واجتهد.

إن اضطراب الواقع في حياتنا يدفع الكثير منا للإكثار من المقولة الشهيرة (القيامة خلاص هتقوم)،وأغلب من يقولون هذه العبارة يكونون من أصحاب الكسل والتواكل، عادة يكونون من فئة (هو ربنا سايبهم ليه) التي تحدثنا عنها آنفًا.

ولو صدق في اعتقاده (القيامة خلاص هتقوم) لكان من المفترض أن يرى أثر الإيمان بهذا الاقتراب على عمله وبذله وإسهامه؛ كي يجد ما يلقى به ربه، ولكنه يقول ذلك من باب أن زمن العمل قد انتهى وليس هناك ما يمكننا فعله فلا تسألني عن شيء ولا تطلب مني شيء فالأمر خرج عن السيطرة إلى حد عدم تصور أن في الغد شيئا آخر غير القيامة.

وسبحان الله!! حتى أمثال هذا لم يدعهم الشرع أو يتجاهلهم وخاطبهم لعلهم يفيقون!!

عن أنس رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال:(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها) السلسلة الصحيحة.

لا مناص ولا مفر، حتى والقيامة تقوم فاستمر في العمل؛ لأن الهدف من العمل ليس النتيجة الدنيوية أصلا ولكن الاحتياج لكل

حسنة ولكل مقدار ذرة من خير يوم الحساب.

إن اضطراب واقعنا في السنوات الماضية والحالية جعل الناس دومًا يؤجلون ويسوفون الكثير من الخير.

عنده مشاريع خيرية ودعوية بل ودنيوية وشخصية...

فلننتظر إلى انتهاء المرحلة الانتقالية...

فلا تنتهي على الصورة التي يتمناها.

فلننتظر الانتخابات القادمة..

فلا تمر كما ينبغي.

فلننتظر انتهاء المظاهرات فلا تنتهي..

فلننتظر فلننتظر..

والسنوات تمر والواقع المثالي الذي ينتظره لا يأتي، وعدم تنفيذ مشروعاته وأفكاره يعد في حد ذاته سببا في استمرار الاضطراب وتقلص مجالات الخير والإيجابية.

إن كل هذه الاضطرابات لا تعد شيئًا إذا ما قورنت بيوم القيامة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ

شَدِيدٌ (٢) ﴾ سورة الحج.

وإن الأسباب التي في يده عادة تكون أكبر وأشد تأثيرا من تلك الفسيلة التي –يقينا– لن يأكل من ثمرتها أحد، أما فسيلته فالخير من ورائها احتمالي، فهي أَوْلى بالغرس، ففي هذا الواقع المضطرب وفي نهاية ذلك الوقت المستقطع أوصي نفسي والقارئ الكريم أن يبحث له عن دور سليم وحق مهما صغر كي يمارسه ويؤدي به ما عليه، وليبدأ على الفور ولا ينتظر الغد ولا ينتظر القيامة، وليعلم أن الله رحيم وسيعينه ويكافئه وأن الله كريم وقدير على أن يحول فسيلته إلى بساتين.

وقد كانت هذه السطور فسيلتي التي أملك، والآية التي أحاول تبليغها، ترددت كثيرًا بشأنها ولكن لم يحسم ترددي سوى هذا المعنى، عسى الله أن يجعلها سببًا في الخير لي وللقارئ الكريم، وعسى الله أن يتقبل ما فيها من صواب يرجع الفضل فيه إلى توفيقه عز وجل وحده، ويغفر لي كل خطأ سببه تقصيري وذنوبي وحدي، اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة، ولك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك.

فِهرِس المُحتَوَيات

إهداء 5

مقدمة د.محمد علي يوسف 7

مقدمة 13

الفصل الأول: سمعنا وأطعنا 19

الفصل الثانى: مدرسة أُحد 53

الفصل الثالث: مدرسة العدل 75

الفصل الرابع: على أبواب التيه 97

الفصل الخامس: ارفع رأسك فوق 111

الفصل السادس: التقدير والتقديس والعبد المأمور 129

الفصل السابع: جريمة التفاؤل 145

الفصل الثامن: وقلوبهم شتى 157

الفصل التاسع: تسامح لا دروشة 173

الفصل العاشر: موازين مائلة 187

خاتمة 213

فهرس المحتويات 221

إن الأمم لا تخرج من التيه إلا بالعدول عن أسباب الدخول فيه وقد كان هذا سبب حرصي على التركيز على مناقشة مشكلات وعيوب وأخطاء انتشرت في زماننا وكان لها دور كبير- حسب اعتقادي - فيما وصلنا إليه، لا أملك وصفة كاملة مفصلة للخروج من التيه خطوة خطوة، ولكني مؤمن أننا على الأقل نحتاج للتخلص من أسباب الدخول كأول خطوة للخروج منه، وأن التأمل في آيات القرآن الكريم ومعانيه هو روح هذه الخطوة وبوصلتها التي توجهها للطريق السليم، وهذا ما أحاول المساهمة فيه من خلال هذا الكتاب.

معتز عبد الرحمن

المؤلف

مهندس إنشائي مصري، تخرج في كلية الهندسة جامعة القاهرة عام ٢٠٠٧، كتب عشرات المقالات خلال السنوات الأخيرة في مجالات متعددة دينية وسياسية واجتماعية ونشرت في مواقع إلكترونية مختلفة مثل البديل وقصة الإسلام ومنبر الشروق بجانب صفحته على موقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك). f /Moataz.articles

مقام
للنشر والتوزيع